شرح
العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله

٧٢٨هـ

شرح فضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن عمر سالم بازمول

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين . قسم الكتاب والسنة

دار الميراث النبوي

للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة
للمؤلف

1439هـ - 2018م

العلمُ ميراثُ النبيِّ كذا أتى في النّص والعلماء هم وُرّاثُه

ما خلّف المختارُ غيرَ حديثه فينا فذاك متاعُه وأثاثُه

جميع الحقوق محفوظة، فلا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه أو تسجيله بأي وسيلة، أو تصويره أو ترجمته دون موافقة خطية مسبقة من المؤلف

التوزيع في المملكة العربية السعودية

: مكتبة ميراث الأنبياء

جدة – حي الجامعة – مسجد الأمير متعب

ت : 00966562737777

مكتبة دار النصيحة

المدينة النبوية – حي الفيصلية- أمام الباب الجنوبي للجامعة الإسلامية

ت : 00966595982046

دار الميراث النبوي للنشر والتوزيع

الصنوبر البحري- المحمدية- الجزائر العاصمة

الإدارة: 554250098 (00213) المبيعات: 550471594(00213)

البريد الإلكتروني: dar.mirath@gmail.com

@mirathennabawi

شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله

٧٢٨هـ

شرح فضيلة الشيخ الدكتور:

محمد بن عمر سالم بازمول

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة

دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله من شُرور أنفُسِنا ومِن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهدِهِ الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هَاديَ له، وأشهدُ أن لَا إله إلَّا الله وحدهُ لا شريك له، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدهُ ورَسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

ألَا وإنَّ أصدقَ الكلامِ كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحدثة في دينِ الله بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة.

أمَّا بعد:

فهذا شرح كتاب العقيدة الواسطية، لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، كنت قد شاركت به ضمن مناشط الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة والأديان والفرق والمذاهب.

وقد انعقدت الدروس في مسجد الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، في يوم السبت (٢٢/ رجب/ ١٤٣٣هـ)، ولمدَّة خمسة أيام، شرحت خلالها متن الواسطيَّة، لابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومتن رسالة شرح السُّنَّة للمُزنيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد قامت دار الميراث -جزاها الله خيرًا- بتفريغه، والعناية به في تخريج الأحاديث والآثار، وعزو الأقوال، وأرسلته لي لمراجعته، فراجعتُه، وحرَّرتُه، وزدتُ، واستدركتُ، وعدَّلت، فالحمد لله علىٰ توفيقه، والشكر للإخوة العاملين في دار الميراث علىٰ جهودهم ومتابعتهم، حتىٰ خرج الكتاب علىٰ هذه الصورة.

واللهَ أسألُ أن يتقبَّل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وداعيًا إلىٰ سنَّة رسوله ﷺ المبعوث رحمةً للعالمين.

❊ ❊ ❊

مدخل الشرح

قبل الكلام في شرح كتاب الواسطية أُقدِّم مقدِّمات:

المقدِّمة الأولىٰ:

العقيدة ودروسها ومسائلها وما يتعلَّق بها هي مِن الدِّين، الذي يشمل معرفة الحلال والحرام والآداب والأخلاق وما يتعلَّق بمسائل العقيدة، والرسول ﷺ سمَّىٰ هذه المسائل: الدِّين؛ كما في حديث جبريل الطويل، لمَّا سأله جبريل وهو في صورة الرجل الأعرابيِّ الذي لا يُرىٰ عليه أثرُ السفر، لمَّا سأله عن الإيمان، وسأله عن الإسلام، وسأله عن الإحسان، وفي كلِّ ذلك يسأله ويُصدِّقه ويقول: صدقت، ثم قام وأدبر، فقال ﷺ: «يَا عُمَرُ، أَتَدرِي مَنِ السَّائِلُ»؟ قال: قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينكُم»(١).

وستجدون أنَّ مسائل الإيمان هي أولىٰ المسائل التي يبدأ بها الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الواسطية».

وعليه؛ فإنَّ ما جرىٰ عليه السلف -رضوان الله عليهم- أنهم يسمُّون ذلك

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الإسلام والإيمان والإحسان، حديث (٨)، عن عمر رضي الله عنه.

كلَّهُ الدِّين، وتارةً يُسمُّونه السنَّة، فيذكرون مِن مسائل الدِّين ما يتعلَّق بالاعتقاد، وما يتعلَّق بالأحكام، كما في كتاب: «السنَّة» للمروزي؛ فلا يوجد عند السلف في الشريعة الإسلامية شيءٌ اسمُه عقيدة، وشيءٌ اسمُه فقه، فكلُّها مسائلُ الدِّين وأمورُ الدِّين.

وخلاصة المقدِّمة الأولىٰ: أنه لا يوجد تقسيمٌ للدِّين فروع وأصول، كلُّ هذه المسائل هي من أمور الدِّين.

* * *

المقدِّمة الثانية:

أنَّ مسائل العقيدة ليست محصورةً، إنما يَذكر العالِم مِن المسائل المتعلِّقة بهذا الباب ما يُخالف فيه أهلُ البدع أهل السنَّة، لذلك تجدونهم يذكرون مسائل من الفقه -بحسب الاصطلاح المتأخِّر- ويُدخلونها في العقيدة.

فمثلًا تَجدهم يذكرون في العقيدة مسألة المسح علىٰ الخُفَّين[1]، وهي مِن مسائل الفقه؛ لأنَّ من أهل البدع مَن خالف أهل السنَّة فيها، وجعلها شعارًا له، وكذلك مسألة قصر الصلاة في السفر، ذكرها المزنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «شرح السنَّة» وذكرها غيره[2] وهي من مسائل الفقه، فلِم ذكروها في العقيدة؟

(١) انظر: «العقيدة الطحاوية - بشرح ابن أبي العز الحنفي» (ص٣٨٦- دار السلام)، و«شرح السنة» للبربهاري (ص٦٠- الجميزي)، و«مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ٢٢٨- زرزور)، و«شعار أهل الحديث» لأبي أحمد الحاكم (ص ٣١- السامرائي).

(٢) انظر: «شرح السنة» للمزني (ص ٩٠- المنهاج)، و«شرح السنة» للبربهاري (ص ٦٠).

أقول: ذكروها في العقيدة؛ لأنَّ العقيدة من الدِّين، فهي تشمل كلَّ أمور الدِّين، وإنما ينصُّ المصنِّفون في السنَّة علىٰ ما خالف فيه أهلُ البدع أهل السنَّة، ولذلك لا نجد كتب العقيدة مشتملةً علىٰ مسائل محدَّدة، فقد تجد كتابًا يذكر مثلًا عشرين مسألة، وكتابًا آخر يذكر خمسين مسألة، وكتابًا آخر يذكر عشرين مسألة ويتوسَّع في مسألتين أو في ثلاثة، وتجد هذا المتنَ تَميَّز بأنه بسط هذه المسألة، وهذا المتنَ تَميَّز بأنه بسط تلك المسألة، وهذا المتنَ جاء بصياغة، والمتنَ الآخر بصياغةٍ أخرىٰ؛ لأنَّ العالم يذكر في هذه الكتب ما تدعو الحاجة إلىٰ ذكره؛ لبيان مخالفة أهل السنَّة لأهل البدعة.

وفي هذا العصر لو أراد واحدٌ مِن أهل العلم أن يكتُب عقيدة لأهل السنَّة، فسيُدرج فيها الكلام علىٰ القرآنيِّين وبدعهم وما يتعلَّق بهم، ومسألة الديمقراطية وحكمها، ومسألة الليبرالية وحكمها، ومسألة العلمانية وحكمها، وسيذكر مسألة الأحزاب والجماعات، وسيُطيل الكلام في قضايا الخروج علىٰ ولاة الأمور، وهو في هذا لم يَخرج عن سنن أهل السنَّة والجماعة فيما يُوردونه في كُتب العقيدة؛ لأنه -كما قلنا- مسائل العقيدة من الدِّين، وإنَّما يُنبِّه العالِم فيها علىٰ ما يُخالف فيه أهلُ البدعة أهل السنَّة، ويُراعي فيها التنصيص علىٰ ما حصل فيه الخلاف الآخر فالآخر، فلا يُطلب أن نحصر مسائل العقيدة في عدد معيَّن؛ لأن العقيدة هي كل الدِّين.

وخلاصة المقدِّمة الثانية هذه: أنَّ مسائل العقيدة ليست محصورة، وإنما يُنبِّه العالِم فيها إلىٰ ما يُحتاج إلىٰ ذكره؛ لبيان مُبَايَنَةِ أهل السنَّة لأهل البدعة، ويُراعي فيها التنصيص علىٰ ما حصل فيه الخلاف الآخر فالآخر.

المقدِّمة الثالثة:

مسائل العقيدة ليس باللازم أن يكون كلُّ عوامِّ المسلمين يعرفونها، إنما ينبغي أن يعرفوا الأصل، وهو تحقيق معنىٰ شهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمَّدًا رسول الله)، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»(١).

وهذه نقطة مهمَّة! فلا نقول مثلًا عن آحاد الناس مِن المسلمين ما دام يجهل بعض المسائل من العقيدة، لا نقول له: ليس عندك عقيدة، فالأصل أنه يعرف معنىٰ شهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمَّدًا رسول الله) التي هي حقُّ الله علىٰ العبيد.

كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي قال فيه: بَينَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيسَ بَينِي وَبينَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحلِ، فقَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»! قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيك، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»! قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيك، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»! قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ، قَالَ: «**هَل تَدرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ**»؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَن يَعبُدُوهُ، وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا**». ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بنَ جَبَلٍ**»! قُلتُ:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمۡ﴾ [التوبة:٥]، حديث رقم (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ، فَقَالَ: «هَل تَدرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ»؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُم»(١).

ومن هنا تظهر ميزةُ كتاب «التوحيد» للإمام المُجدِّد: محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي بناه علىٰ بيان شهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمَّدًا رسول الله)، وبيان ما يُناقضها، فإنَّك إذا استعرضت أبواب الكتاب من أوَّله إلىٰ آخره؛ وجدتها في بيان هذه المسائل التي يحتاجها كلُّ مسلم، والتي يحقِّق بها شهادة: (أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله)

❊ ❊ ❊

المقدِّمة الرابعة:

ليس عند أهل السنَّة والجماعة -حينما يتكلَّمون في العقيدة- شيءٌ اسمه وجوبُ النظر أو النظر الواجب، ودليلهم علىٰ ذلك: أن الرسول ﷺ لم يَجعل أوَّل واجب علىٰ المُكلَّف هو النظر؛ لأنه يقول: «أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»(٢).

فلم يذكر وجوب النظر، إنَّما ذكر وجوب تحقيق شهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، فما يُذكر في متون الأشاعرة والمتكلِّمين في العقيدة،

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب: إِردَافِ الرَّجُلِ خَلفَ الرَّجُلِ، حديث رقم (٥٩٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: مَن لَقِيَ اللهَ بِالإِيمَانِ وَهُو غيرُ شَاكٍّ فِيهِ دَخَلَ الجَنَّةَ وَحُرِّمَ عَلَىٰ النَّارِ، حديث رقم (٣٠).

(٢) سبق تخريجه.

ويجعلونه أوَّل مسألةٍ ويقولون: أوَّل واجب علىٰ المُكلَّف هو النظر.

نقول: هذا ليس من مذهب أهل السنَّة والجماعة، إنَّما الواجب علىٰ كلِّ مكلَّف هو شهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، كما نصَّ علىٰ ذلك أبو المظفَّر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «الانتصار لأصحاب الحديث»[1]، ونقله عنه قوَّام السنَّة الأصفهاني في كتابه: «الحُجَّة في بيان المحجَّة»[2]. واستدلَّ بحديث الرسول ﷺ: «أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ» وأمثاله.

قال: «لم يُروَ أنه دعاهم إِلَىٰ النَّظر وَالِاستِدلَال، وَإِنَّمَا يكون حكم الكَافِر فِي الشَّرع أَن يُدعىٰ إِلَىٰ الإِسلَام، فَإِن أَبىٰ وَسَأَلَ النظرة والإمهال؛ لَا يُجَاب إِلَىٰ ذَلِك، وَلكنه إِمَّا أَن يُسلم أَو يُعطي الجِزيَة أَو يقتل، وَفِي المُرتَد إِمَّا أَن يُسلم، أَو يقتل، وَفِي مُشركي العَرَب علىٰ مَا عُرف.

وَإِذا جعلنَا الأَمر علىٰ مَا قَالَه أهل الكَلَام؛ لم يكن الأَمر علىٰ هَذَا الوَجه، وَلَكِن يَنبَغِي أَن يُقَال لَهُ -أَعنِي الكَافِر-: عَلَيك النَّظر وَالِاستِدلَال؛ لتعرف الصَّانِع بِهَذَا الطَّرِيق، ثمَّ تعرف الصِّفَات بدلائلها وطرقها، ثمَّ مسَائِل كَثِيرَة، إِلَىٰ أَن يصل الأَمر إِلَىٰ النُّبوَّات». إلىٰ آخر كلامه.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: (ص٦١-٦٦)، مكتبة أضواء المنار، الطبعة الأولىٰ.

(٢) انظر: (٢/ ١٢٠-١٢٥)، دار الراية، الطبعة الثانية.

المقدِّمة الخامسة:

مسائل العقيدة ممَّا يتعلَّق بشهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمَّدًا رسولُ الله)، يجب على المسلم أن ينتبه لها وأن يُراعيها؛ لأنَّها يتمُّ بها تحقيقُ معنى الشهادة، فهي من أهمِّ الأمور، لكن هناك مسائل في العقيدة قد تكون غامضة، فيقع فيها الاجتهاد ويتفاوت النَّاس في العلم بها، فيُطبَّق عليها القاعدة الشرعية فيما يتعلَّق بأمور الاجتهاد، بمعنى أنه ليست كلُّ مسألة من مسائل العقيدة يُكفَّر فيها المُخالف، بل قد يُعذر فيها، وأبوابُ العقيدة مختلفة، والأصل في ذلك القاعدةُ المُطردة في باب التكفير أنه «لا يُكفَّر المُعيَّن إلا بعد قيام الحُجَّة»؛ بأن يتحقَّق الإنسان من ثبوت الشروط، وانتفاء الموانع، وهذا مُطَّرد.

ولذلك لمَّا كان شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يتباحث ويتناظر مع الجهميَّة، كان يقول لهم: «لو وافقتكم كنت كافرًا؛ لأنِّي أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون؛ لأنَّكم جهَّال»[1].

يقول لهم هذا الكلام لأنه لم يتبيَّن مِن خلال كلامه معهم أنَّ الحُجَّة قامت عليهم، وتبيَّن له أنَّ هناك مانعًا من موانع التكفير قائمٌ، إذن مسائل العقيدة ليست على درجةٍ واحدة، ويُطبَّق فيها قاعدة وجوب التحقُّق من قِيام الحجَّة عند تكفير المُعيَّن، فلا يأتي أحد ويقول: هذه مسألة من مسائل العقيدة، وأنت خالفت فيها؛ فأنت كافر!

---

(١) «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص ٢٥٣- السهلي).

نقول: لا، هذا غير وارد، وإنما تُطبَّق فيه القاعدة المعلومة المُطَّرِدة في مسائل الاعتقاد أنه لابدَّ من تحقُّق قِيام الحُجَّة بثبوت الشروط، وانتفاء الموانع.

❊ ❊ ❊

المقدِّمة السادسة:

لو أردنا اليوم أن نكتب عن مسائل العقيدة لعلَّ أهمَّ المسائل التي نذكرها ما يتعلَّق بالشيعة، وما يتعلَّق بمسائل الخروج، وبالمسائل الحادثة اليوم، ولذلك ينبغي لطلبة العلم المتخصِّصين أن ينتبهوا لهذه المسائل، ويُشيعوا بين الناس مذاهب أهل السنَّة فيها، فيُبيِّنوا ما يتعلَّق بالشيعة وبدعهم وضلالهم وانحرافهم، وما يُخطِّطُون به مِن مكرٍ علىٰ أمَّة الإسلام، وكذا ما يتعلَّق بمسائل العلمانية، وكذا ما يتعلَّق بمسائل اللِّيبرالية، وكذا ما يتعلَّق بمسائل الأحزاب والجماعات.

❊ ❊ ❊

المقدِّمة السابعة:

التعريف بمتن الواسطية: سُمِّي بالواسطية؛ لأنَّ قاضيًا من واسِط أتىٰ إلىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، وطلب منه أن يكتب له عقيدةً يرجع إليها، فكتب ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه العقيدة في جلسةٍ بعد العصر[1].

ثم حدثت لشيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذلك المحنةُ التي امتُحن فيها في مسائل من مسائل الاعتقاد في باب الأسماء والصفات وغيرها، فطلب إحضار

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٤).

هذا المتن، وقال: «قَد أَمهَلت كُلَّ مَن خَالَفَنِي فِي شَيءٍ مِنهَا ثَلَاثَ سِنِينَ، فَإِن جَاءَ بِحَرفٍ وَاحِدٍ عَن أَحَدٍ مِنَ القُرُونِ الثَّلَاثَةِ -الَّتِي أَثنَىٰ عَلَيهَا النَّبِيُّ ﷺ حَيثُ قَالَ: «خَيرُ القُرُونِ القَرنُ الَّذِي بُعِثت فِيهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»- يُخَالِفُ مَا ذَكَرتُه؛ فَأَنَا أَرجِعُ عَن ذَلِكَ وَعَلَيَّ أَن آتِيَ بِنُقُولِ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ -عَنِ القُرُونِ الثَّلَاثَةِ تُوَافِقُ مَا ذَكَرته- مِنَ الحَنَفِيَّةِ، وَالمَالِكِيَّةِ، وَالشَّافِعِيَّةِ، وَالحَنبَلِيَّةِ، وَالأَشعَرِيَّةِ، وَأَهلِ الحَدِيثِ، وَالصُّوفِيَّةِ، وَغَيرِهِم»[1]. واشتُهر باسم الواسِطِية.

وبعضُ النَّاس يُسمِّيه: الوَسَطِية، ويقول: لأن شيخ الإسلام ابن تيمية وصف فيه أهل السنَّة والجماعة ومذهبهم واعتقادهم بأنهم وسط، وتكرَّر هذا في أوَّل الكتاب وفي آخره، فقال: هذه العقيدة الوَسَطية التي تُمثِّل أهل السنَّة والجماعة.

وقد اهتمَّ شيخ الإسلام في هذا الكتاب بالمسائل التي كثُر الكلام عليها في عصره، وأهمُّها مسألة الأسماء والصفات، ولذلك توسَّع فيها، فلا تجدهم توسَّعوا في أيِّ متن مثل توسُّعه في مثل هذا المتن الذي كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العقيدة، وهذا بسبب ما ذكرناه في المقدِّمات؛ أنَّ كُتب العقيدة إنما تنصُّ وتتوسَّع في المسائل التي حدث فيها خلافٌ من أهل البدعة لأهل السنَّة.

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (٣/ ١٦٩).

تعريف موجز بشيخ الإسلام مؤلِّف متن «الواسطية»(١)

مؤلِّف هذا المتن هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، ولد سنة إحدىٰ وستِّين وستِّمائة، وتوفِّي سنة سبعمائة وثمانية وعشرين هجرية، عن ثلاث وستِّين سنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

رزقه الله فهمًا وعلمًا، وفتح عليه في علوم السلف وفهم مقالاتهم وفهم كلامهم وما يحدث بينهم، فصار يتكلَّم في هذه العلوم، ويأتي بمقالات السلف وينصرها ويستدلُّ لها من الكتاب ومن السنَّة ومن إجماع الأمَّة، ويُقرِّر المسائل في وقت كاد أن يغلب فيه أهلُ الكلام والفلسفة علىٰ علوم الشريعة، في وقتٍ انتشرت فيه مذاهب الوجودية الاتحادية والحلولية، ومذاهب الأشاعرة والمتكلِّمين والمعتزلة، فوقف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وجه ذلك وقفة قويَّةً، نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يجعلها في ميزان حسناته.

---

(١) انظر ترجمته في: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي، و«الأعلام العليَّة» للبزَّار، و«تذكرة الحفَّاظ» (٤/ ١٩٢-١٩٣، الكتب العلمية)، و«المعجم المختص بالمحدِّثين» للذهبي (ص ٢٥-٢٧، الصديق)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٨/ ٢٦٩-٣٠٢، هجر)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٤٩١-٥٢٩، العبيكان)، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدمشقي، و«الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» جمع: محمد عزير شمس وعلي العمران.

فألَّف كتبًا كثيرة في هذا الباب، فألَّف:

- «درء تعارض العقل والنقل» في نقض أصول المعتزلة والأشاعرة المتعلِّقة بتقديم العقل علىٰ النصِّ.

- وألَّف «منهاج السنَّة النبويَّة في نقض كلام الشيعة والقدرية».

- وألَّف «الاستقامة» في بيان ما يتعلَّق بالصوفية وأحوالهم.

وكَتَب العديد من الرسائل والكتب والفتاوىٰ التي انتشرت في حياته وبعد مماته رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويكفيه فضلًا أنَّ من تلامذته أئمَّة كبارًا مشهورين؛ فإنَّ ممَّا يدلُّ علىٰ فضل العالم كتبه وتلامذته، فمن تلامذته ابنُ قيِّم الجوزية (ت٧٥١هـ)، وابنُ مفلح (ت٧٦٣هـ)، وابنُ كثير المفسِّر (ت٧٧٤هـ)، والذهبيُّ المؤرِّخ (ت٧٤٨هـ)، في آخرين من أهل العلم الكبار، لكن أشهر من عُرف منهم هؤلاء الذين ذكرنا، فهذا ممَّا يدلُّ علىٰ فضل الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وسُمِّيت هذه العائلة بعائلة «تيمية» نسبة إلىٰ جدَّتهم.

وقيل: إنَّ جَدَّه محمَّد بن الخَضِر حَجَّ -وله امرأةٌ حاملٌ- علىٰ درب تَيماء، فرأىٰ هناك جاريةً طِفلة قد خرجت من خِبَاءٍ، فلمَّا رجع إلىٰ حَرَّان وجد امرأته قد ولدت بنتًا، فلمَّا رآها قال: يا تَيمِيَّة، يا تَيمِيَّة، فلُقِّب بذلك.

وابنُ تيمية من عائلة علم، فأبوه عبدُ الحليم كان عالمًا في المذهب، وجدُّهُ عبد السلام كان من مُجتهدي المذهب الحنبلي -رحمهم الله-.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمدُ لله الَّذي أَرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا.

وأَشهَدُ أَن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِقرَارًا بِهِ وَتَوحِيدًا.

وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا مَزِيدًا.

الشرح

أقول: لن أشرح هذه المقدِّمة، وأُسوتي في ذلك الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه قال في كتابه «تُحفة الذَّاكرين»(١)، في شرح كتاب «الحصن الحصين» لابن الجزري، قال: «كلُّ ذَلِك غنيٌّ عن الشَّرح؛ لوضوحه لفظًا ومعنًىٰ، وعدم الفَائِدَة بتبيين البيِّن وتوضيح الجَلِيِّ، فإِن ذَلِك من تَحصِيل الحَاصِل، وَمن شغلة الخَير بِمَا لَيسَ فِيهِ طائل».

لكن أنبِّه علىٰ مسألة، فأقول:

عَدَل شيخ الإسلام ابنُ تيمية عن خُطبة الحاجة، وذلك فيه بيان أنَّه لا يجب

(١) (ص١٠)، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولىٰ.

ذكر خطبة الحاجة في كلِّ مقام، فلو تُركت أحيانًا؛ لكان في ذلك مصلحة بيان أنَّها غير واجبة، وأنَّها سنَّة مستحبَّة فقط، ولذلك نجد أهل العلم منهم مَن يُقدِّم خُطبة الحاجة، ومنهم مَن لا يُقدِّم خُطبة الحاجة كما في هذا المتن، بل هناك مِن أهل العلم مَن لم يذكر خُطبةً أصلًا، واكتفىٰ بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأشهرُ من فعل ذلك الإمام البخاريُّ، والإمام مسلم -رحمهما الله-.

* * *

أَمَّا بَعدُ:

فَهَذَا اعتِقَادُ الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ المَنصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

الشرح

قوله: «فَهَذَا اعتِقَادُ»: الاعتقاد مِن عَقد القلب[1]، ولذلك يُعرِّفه بعضُ أهل العلم بأنه: القول الجازم في القلب، تقول: عقيدتي كذا؛ أي: الذي أقوله جازمًا به هو كذا.

وشاع عند العوام اليوم أنَّهم يذكرون كلمة: أعتقد، ولا أعتقد بمعنىٰ: أظنُّ، وإلَّا في الأصل: العقيدة والاعتقاد هو القول الجازم في القلب.

فقوله: «فَهَذَا اعتِقَادُ الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ»: أي: هذا القول الذي يَجزمُ به أهلُ السنَّة والجماعة والفرقة الناجية فيما ينبغي أن يكون في قلب كلِّ واحدٍ منهم.

قوله: «الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ المَنصُورَةِ»: هذا اللَّقب أخذهُ المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث الرسول ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ، لَا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم، حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ، وَهُم كَذَلِكَ»[2].

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (٤/ ٨٦، الفكر)، و«المصباح المنير» للفيومي (٢/ ٤٢١- المكتبة العلمية).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب قولِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ لَا يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم»، حديث رقم (١٩٢٠)، وهو حديث متواتر؛ انظر: «نظم المتناثر» (ص ١٤١- المكتبة السلفية).

ولم يُفرِّق شيخ الإسلام بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة كما فرَّق بعضُ النَّاس، وهذا هو الصحيح عدم التفريق؛ فإنَّ الرسول ﷺ لم يُفرِّق بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

وتَلقيبها بأنها فرقةٌ ناجيةٌ بيانُه مِن حديث الرسول ﷺ كذلك، فإنه قال ﷺ: «افتَرَقَت اليَهُودُ عَلَىٰ إِحدَىٰ وَسَبعِينَ فِرقَةً، وَافتَرَقَت النَّصَارَىٰ عَلَىٰ ثِنتَينِ وَسَبعِينَ فِرقَةً، وَسَتَفتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فرقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قَالُوا: مَن هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي»(١).

وفي رواية قال: «الجَمَاعَةُ»(٢).

فهي فِرقةٌ ناجيةٌ من الوعيد المذكور في هذا الحديث مِن كون كلِّها في النَّار إلَّا واحدة.

وينبغي أن نعلم أن هذا الحديث من نصوص الوعيد، فلننتبه للقاعدة فيها، وهي أنَّ أصحاب هذا الفعل المتوعَّد عليه إذا لم يكن شركًا؛ فهم في مشيئة الله،

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»، في أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم (٢٦٤١)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقال: «حَدِيثٌ مُفَسَّرٌ غَرِيب». وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (الرسالة- ٢٨/ ١٣٤-١٣٥، تحت رقم ١٦٩٣٧)، وأبو داود في كتاب السنة، باب شرح السنة، حديث رقم (٤٥٩٧). وصحَّح إسناده محقِّق «جامع الأصول» (١٠/ ٣٢)، والألبانيُّ في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» حديث رقم (٢٠٤)، وذكر جملةً من الأحاديث تشهد له. وقد أشار إلىٰ تواتره في «نظم المتناثر» (ص ٣٢-٣٤).

إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذَّبهم، فقوله ﷺ: «كُلُّهَا فِي النَّارِ» هذا مِن نصوص الوعيد، وأصحابُه إن لم يكن عملهم شركًا، هم في مشيئة الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

فكل مَن خالف مُعتقد أهل السنَّة والجماعة لا نقول: إنه كافر، وهو في النَّار، إنما نقول: هو مُعرَّضٌ للوعيد، ما لم يكن القول الذي قاله شركًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ومعنىٰ قوله: «المَنصُورَةِ»: أنَّ أهل السنَّة والجماعة فِرقةٌ ناجية منصورة.

فإن قيل: كيف تقول: هي منصورة، ونحن نرىٰ المسلمين في أماكن ضعفاء ومغلوبين؟

فالجواب: هُم مَنصورون في حال ضعفهم بالحجَّة والبرهان، وفي حال قوَّتهم بالسيف والسِّنان؛ فأهل السنُّة والجماعة منصورون لا يستطيع صاحبُ ضلالة أو بدعة أن يغلبهم بحجَّة أو بُرهان حتىٰ ولو كانوا ضعفاء؛ لأنَّ حجَّتهم: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، ويحتجُّون بالإجماع والقياس الصحيح، هذه حُجَّتهم، فمَن يستطيع أن يردَّ كلام الله وكلام الرسول إذا كان مِن المُحكمات البيِّنات؟

لا أحد يستطيع إذا كان مسلمًا علىٰ أصل صحيح من السنَّة والاتِّباع، إنما يُخالف هذه الأصول أهل البدع والأهواء، فأهل السنة منصورون في حال ضعفهم بالحجَّة والبرهان، وفي حال قوَّتهم بالسيف والسِّنان، وهذا معنىٰ قول

الرسول ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ لَا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ وَهُم كَذَلِكَ»(١).

قوله: «إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ» هكذا جاء في رواية للحديث(٢).

وجاء في رواية: «حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ».

وقد جاء ما يُفسِّرُ ذلك؛ فإن الرسول ﷺ بيَّن أن عيسىٰ بن مريم لمَّا ينزل في آخر الزمان يقتل الدجَّال، ثم يخرج يأجوج ومأجوج فيُميتهم الله ﷻ؛ بأن يُرسل عليهم ديدان النغف تأكل في رقابهم حتىٰ يموتوا، ثم يُرسل الله مطرًا يغسل الأرض حتىٰ تصير زلفًا، ثم تُخرج الأرض خيراتها، وتردُّ إليها بركاتها، حتىٰ إن الرُّمَّانة لتكفي العصابة من الناس، وإن اللَّقحة لتكفي الفِئام من النَّاس، فيبقىٰ عيسىٰ عليه السلام ومَن معه من المؤمنين، ثم يموت عيسىٰ عليه السلام، ويبقىٰ بقيَّةٌ مِن المؤمنين، ثم يبعث الله ريحًا خفيفة تقبض أرواح المؤمنين، ولا يبقىٰ إلَّا شرار

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب: قَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ يُقَاتِلُونَ» وَهُم أَهلُ العِلمِ، حديث رقم (٧٣١٢)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: قَولِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ لَا يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم» حديث رقم (١٠٣٧)، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. ولفظه عند البخاري: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا يُفَقِّههُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعطِي اللهُ، وَلَن يَزَالَ أَمرُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُستَقِيمًا حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ، -أَو: حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ-». وأخرجه مسلم في الباب نفسه، حديث رقم (١٩٢٢)، عن جابر بن سمرة، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَن يَبرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا، يُقَاتِلُ عَلَيهِ عِصَابَةٌ مِنَ المُسلِمِينَ، حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ».

الخلق عليهم تقوم الساعة(١).

فقوله: «إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ»؛ يعني: إلىٰ قريب قيام الساعة كما فسَّره الحديث الوارد في هذا المعنىٰ؛ أي: إلىٰ قرب قيام الساعة، في الوقت الذي يبعث الله عَجَلَّ فيه تلك الرِّيح الطيِّبة، فتقبض أرواح المؤمنين، ولا يبقىٰ إلَّا شرارُ الخلق الذين عليهم تقوم الساعة.

المقصود: أن هذه العقيدة التي يذكرها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي عقيدة أهل السنَّة والجماعة الفرقة الناجية إلىٰ قيام الساعة؛ يعني: إلىٰ ذاك الوقت الذي يقبض فيه الله أرواح المؤمنين، فلا يبقىٰ إلا شرارُ الخلق.

قوله: «أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ»؛ أي: الَّذين شعارهم لزوم السنَّة ولزوم الجماعة، كما في الحديث السَّابق لمَّا سُئل النبيُّ ﷺ عنها، وقيل له: من هي يا رسول الله؟ قال: «الجَمَاعَةُ»، وفي رواية قال: «مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي»(٢).

فهذه السنَّة وهذه الجماعة؛ أي: الملتزمون بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه وما جرىٰ عليه السلف الصالح، وما عليه جماعةُ أهل السنَّة.

ولفظة «الجماعة» ترد في الأحاديث، ولها معانٍ:

فتطلق كلمة الجماعة بمعنىٰ: ما عليه الرسول وأصحابُه وأهلُ السنَّة ومَن

---

(١) انظر «صحيح مسلم»: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذِكرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، حديث رقم (٢٩٣٧)، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

تبعهم بإحسان، وهذه الجماعة بالمعنىٰ الاعتقادي الدِّيني.

وتُطلق الجماعة بمعنىٰ الطائفة من المسلمين يسمعون ويُطيعون لوليِّ أمرهم، فهو أميرهم وهم جماعتُه، وهذه الجماعة بالمعنىٰ الثاني، هي الَّتي أرادها الرسول ﷺ في تحذيره من الخروج عن جماعة المسلمين، في قوله ﷺ: **«فَمَن أَرَادَ أَن يُفَرِّقَ أَمرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضرِبُوهُ بِالسَّيفِ كَائِنًا مَن كَانَ»**(١).

وهي التي أرادها الرسول ﷺ في قوله: **«فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم فَسَيَرَىٰ اختِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ مِن بَعدِي»**، ثم قال محرِّضًا علىٰ لزومها: **«أُوصِيكُم بِتَقوَىٰ اللهِ، وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِن تَأَمَّرَ عَلَيكُم عَبدٌ حَبَشِيٌّ»**(٢).

وهي التي أرادها الرسولُ ﷺ في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما لمَّا ذكر ما

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: حُكمِ مَن فَرَّقَ أَمرَ المُسلِمِينَ وَهُوَ مُجتَمِعٌ، حديث رقم (١٨٥٢)، عن عرفجة بن شُرَيح رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨/ ٣٦٧ تحت رقم ١٧١٤٢ و٣٧٣ تحت رقم ١٧١٤٤ و٣٧٥ تحت رقم ١٧١٤٥ - الرسالة)، وأبو داود في كتاب السنَّة، باب في لزوم السنَّة، حديث رقم (٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنَّة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب: اتباع سنَّة الخلفاء الراشدين، حديث رقم (٤٢، ٤٣، ٤٤)، والدارمي في المقدمة، باب اتباع السنة، حديث رقم (٩٦- المغني)، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه. والحديث صحَّحه العلامة الألباني في «إرواء الغليل» (٨/ ١٠٧)، حديث رقم (٢٤٥٥).

سيكون في الأمَّة؛ قال حذيفة: كَانَ النَّاسُ يَسأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخَيرِ، وَكُنتُ أَسأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَن يُدرِكَنِي، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ ﷻ بِهَذَا الخَيرِ، فَهَل بَعدَ هَذَا الخَيرِ مِن شَرٍّ؟

قَالَ: «نَعَم».

قُلتُ: وَهَل بَعدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِن خَيرٍ؟

قَالَ: «نَعَم، وَفِيهِ دَخَنٌ».

قُلتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟

قَالَ: «قَومٌ يُهدُونَ بِغَيرِ هَديِي؛ تَعرِفُ مِنهُم وَتُنكِرُ».

قُلتُ: فَهَل بَعدَ ذَلِكَ الخَيرِ مِن شَرٍّ؟

قَالَ: «نَعَم، دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبوَابِ جَهَنَّمَ، مَن أَجَابَهُم إِلَيهَا؛ قَذَفُوهُ فِيهَا».

قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفهُم لَنَا.

قَالَ: «هُم مِن جِلدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلسِنَتِنَا».

قُلتُ: فَمَا تَأمُرُنِي إِن أَدرَكَنِي ذَلِكَ.

قَالَ: «تَلزَمُ جَمَاعَةَ المُسلِمِينَ وَإِمَامَهُم»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب: كَيفَ الأَمرُ إِذَا لَم تَكُن جَمَاعَةٌ، حديث رقم (٧٠٨٤)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: بَابُ الأَمرِ بِلُزُومِ الجَمَاعَةِ عِندَ ظُهُورِ الفِتَنِ، حديث رقم (١٨٤٧).

فهذه الجماعة الثانية، وهي الطائفة من المسلمين عليهم وليٌّ أمر يسمعون له ويطيعون له.

فالجماعة بالمعنىٰ الأوَّل: هي لزوم ما كان عليه الرسولُ ﷺ وأصحابُه ومَن تبعهم بإحسان، فهي الجماعة بالمعنىٰ الدِّيني الاعتقادي.

والمعنىٰ الثاني للجماعة: هي جماعة المسلمين عليهم وليٌّ أمر يسمعون له ويطيعون.

أمَّا المعنىٰ الثالث للجماعة: فهو بمعنىٰ الحزب، وهذا معنًىٰ مذموم؛ لِمَا يُسبِّبُه من الاختلاف والفُرقة بين المسلمين.

والمراد بأهل السنَّة والجماعة هنا: الجماعة بالمعنىٰ الأول، ويدخل فيه الثاني بالتَّبع.

❊ ❊ ❊

وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعثِ بَعدَ المَوتِ، وَالإِيمَانِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ.

الشرح

أقول: هذه الأمور التي ذكرها شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هي التي وردت في معنىٰ الإيمان في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فذكرها الشيخ علىٰ سبيل الإجمال، ثم شرع في بيان ما قصد بيانه منها علىٰ وجه التفصيل.

فتكلَّم علىٰ معنىٰ الإيمان بالله وما يدخل فيه.

ثم بعد ذلك تكلَّم علىٰ معنىٰ الإيمان بالقدر.

ثم معنىٰ الإيمان باليوم الآخر وما يدخل فيه.

ثم ذكر فصولًا ممَّا يعتقده أهلُ السنَّة والجماعة، وخالفهم فيه أهلُ البدع، ثم ختم ذلك بذكر أخلاق أهل السنَّة والجماعة وآدابهم.

* * *

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِن غيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَلَا تَكيِيفٍ وَلَا تَمثِيلٍ، بَل يُؤمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَلَا يَنفُونَ عَنهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلحِدُونَ فِي أَسمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا يُقَاسُ بِخَلقِهِ ﷻ.

فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ أَعلَمُ بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ، وَأَصدَقُ قِيلًا، وَأَحسَنُ حَدِيثًا مِن خَلقِهِ، ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيهِ مَا لَا يَعلَمُونَ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠- ١٨٢].

فَسَبَّحَ نَفسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ المُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ المُرسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقصِ وَالعَيبِ.

وَهُوَ سُبحَانَهُ قَد جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفسَهُ بَينَ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ.

فَلَا عُدُولَ لأَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المُستَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ.

الشرح

في هذا المقطع يفسِّر شيخ الإسلام معنىٰ الإيمان بالله، فما معنىٰ أن تُؤمن بالله؟

الإيمان بالله: أن تُصدِّق به، وأن تعرفه، وأن تُعظِّمه، هذه الأمور الثلاثة: التصديق والمعرفة والتعظيم؛ تحتها جُملةٌ من المسائل، أهمُّ هذه المسائل مسألةٌ كثُر الصراع فيها في عصر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وزمنه فبسطها، وهي مسألةُ إثبات أسماء الله وصفاته؛ لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأىٰ كثيرًا ممَّن ينتسب إلىٰ العلم في زمنه ومن قبله لا يُثبتون أسماء الله وصفاته، فمنهم من يعطِّلها وينفيها، ومنهم من يزعم أنه يتأوَّلها، وهو يسلك بها مسلك التحريف، فلذلك بسط الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام في تقرير هذه القضية.

فذكر عدَّة أمور، فقال: «وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِن غَيرِ تَحرِيفٍ، وَلَا تَعطِيلٍ، وَلَا تَكيِيفٍ، وَلَا تَمثِيل»: وفي هذه الفقرة حدَّد عدَّة أمور:

الأمر الأول: قاعدة عامَّة في أنَّ أسماء الله وصفاته توقيفية، فليس لك ولا لي ولا لغيرنا أن يأتي بأسماء أو صفات مِن عند نفسه، ويجعلها لله عَزَّ وَجَلَّ، لذلك قال: «وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ»؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يصف الله بصفةٍ أو أن يُسمِّي الله باسمٍ لم يَرد في كتاب الله ولا في سنَّة رسول الله ﷺ.

الأمر الثاني: أنَّ هذه الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنَّة تُثبت لله عَزَّ وَجَلَّ من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، فليست القضية إثبات أسماء وصفات فقط، لا؛ بل تُثبت هذه الأسماء والصفات بالتوقيف، وثانيًا: تُثبت مع اجتناب هذه الأمور الأربعة:

أوَّلًا : «من غير تحريف»، ومعناه: هو الميل. وهو إمَّا أن يكون تحريفًا لفظيًّا، أو تحريفًا معنويًّا.

فالتحريف اللفظيُّ: مثلُ قول من قال: استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ، فهذا حرَّف معنىٰ الاستواء بمعنىٰ العلوِّ والارتفاع إلىٰ الاستواء بمعنىٰ الاستيلاء، ويستدلُّون بقول الشاعر:

قَـد اسـتَوَىٰ بِـشرٌ عَلَـىٰ العِـرَاقِ   مِـن غَيـرِ سَـيفٍ وَلَا دَمٍ مهـرَاقِ

فهذا تحريفٌ لكلمة (استوىٰ) إلىٰ (استولىٰ)، وزعموا أنهم فعلوا ذلك هربًا مِن تشبيه الله بالمخلوقين.

فنقول له: أنت وقعت في شرٍّ ممَّا هربت منه؛ لأنك لمَّا تقول: استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ، كأنك جعلت لله مَن يُنازعه في هذا المُلك وفي هذا العرش، فجعلت الله ضعيفًا قليل القدر ينازَع في عرشه وفي مُلكه، أردت أن تنفي المشابهة فوقعت في أسوأ منها! لكن لِمَ لا تقول مثلما قال الإمام مالك وقالت أمُّ سلمة وربيعة بن عبد الرحمن وغيرهم من أهل العلم[1]، فتقول: «استوىٰ علىٰ العرش»: «الاستواء معلوم -لأن معناه علا وارتفع-، والكيف مجهول»، فتُثبت لله ﷻ الاستواء بمعناه المعروف علىٰ الوجه اللائق بجلاله.

ومِن التحريف اللَّفظي أيضًا: قولُ من قال مِن المعتزلة في قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، قال: ناظرة ليس معناه ترىٰ الله، ولكنَّها مُنتظِرة، ففسَّرها بمعنىٰ الانتظار، وهذا جهلٌ بالعربية، فإن الانتظار لا يُعدَّىٰ

(١) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٥/ ٣٦٥).

بحرف الجرِّ (إلىٰ)، فلا يُقال في الانتظار: انتظارك إلىٰ كذا، إنما يقال: انتظارك كذا.

وهذا أيضًا نفيٌ لما أثبته الرسول ﷺ في قوله: «إِنَّكُم سَتَرَونَ رَبَّكُم عِيَانًا»(١)، فشبَّه رؤية برؤية، ولم يشبِّه مرئيًا بمرئيٍّ، والمعتزلة ومن تابعهم يحرِّفون هذه اللَّفظة في الآية عن معناها؛ بجعلهم لفظًا آخر لها، فيقولون: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ يعني: منتظرة، وهذا تحريف لفظيٌّ.

التحريف المعنوي: هو الذي يُعبِّر عنه العلماء بالتأويل، وهؤلاء الذين أوَّلوا الاستواء بالاستيلاء جمعوا نوعي التحريف؛ فإنهم حرَّفوا استوىٰ إلىٰ استولىٰ وتأوَّلوا، ولمَّا حرَّفوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ حرَّفوا اللَّفظ وتأوَّلوا، ومثلُه من يتأوَّل صفة السَّمع والبصر لله ﷻ، فيقول: معناهما الحفظ، يقول: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] يعني: في حفظي، فهذا تأويل، وهو تحريف معنويٌّ.

قوله: «وَلَا تَعطِيلٍ»: التعطيلُ هو سلب معنىٰ الصفة، فيقول: الله سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، فيُثبت الصفة وينفي معناها.

وقد ورد عن بعض السلف أنه قال: «المُشبِّهُ يعبُدُ صنمًا، والمُعَطِّلُ يعبُدُ عدمًا»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، حديث رقم (٧٤٣٥)، عن جرير بن عبد الله ﷺ.

(٢) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٥/ ١٩٦، ٢٦١)، «الكافية الشافية في عقيدة الفرقة الناجية - بشرح ابن عيسىٰ» لابن القيم (١/ ٢٨- المكتب الإسلامي)، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/ ١٤٨- الدخيل).

ويُذكر عن محمود سبكتكين أنه كان في مجلسه علماء يَتناظرون، فقال لرجل من المُتكلِّمين: صِف الله، قال: الله لا فوق، ولا تحت، ولا أمام، ولا خلف، ولا يمين، ولا يسار! فقال محمود سبكتكين: والله لو أردتَ أن تصف العدم؛ لما وصفته بأكثر من هذا(١). ولذلك المُعطِّلُ يعبُدُ عدمًا.

ومثلُه قول بعض السلف: «مَثَلُ الجَهمِيَّةِ مَثَلُ رَجُلٍ قِيلَ لَهُ: أَفِي دَارِكَ نَخلَةٌ؟ قَالَ: نَعَم. قِيلَ: فَلَهَا خُوصٌ؟ قَالَ: لَا. قِيلَ: فَلَهَا سَعَفٌ. قَالَ: لَا. قِيلَ: فَلَهَا كَرَبٌ؟ قَالَ: لَا. قِيلَ: فَلَهَا جِذعٌ؟ قَالَ: لَا. قِيلَ: فَلَهَا أَصلٌ؟ قَالَ: لَا. قِيلَ: فَلَا نَخلَةَ فِي دَارِكَ. هَؤُلَاءِ الجَهمِيَّةُ، قِيلَ لَهُم: لَكُم رَبٌّ؟ قَالُوا: نَعَم. قِيلَ: يَتَكَلَّمُ؟ قَالُوا: لَا. قِيلَ: فَلَهُ يَدٌ؟ قَالُوا: لَا. قِيلَ: فَلَهُ قَدَمٌ؟ قَالُوا: لَا. قِيلَ: فَلَهُ إِصبَعٌ؟ قَالُوا: لَا. قِيلَ: فَيَرضَىٰ وَيَغضَبُ؟ قَالُوا: لَا. قِيلَ: فَلَا رَبَّ لَكُم»(٢). فالتعطيل نفيُ الصفات.

قوله: «وَلَا تَكيِيفٍ»: يعني: أن تقول: هذه الصفة كيفيتُها كذا، فهذا فيه تشبيه للخالق بالمخلوقين، والأصل أنك كما أثبتَّ لله ذاتًا تختلف عن الذوات؛

---

(١) انظر: «التسعينية» (٢/ ٧١٠-٧١١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٧)، و«درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (٦/ ٢٥٣)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٢١-٢٢).

(٢) أخرجه ابنُ شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» (ص٣٣، برقم٣٤- قرطبة)، عن حماد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسناد صحيح. وأخرجه أيضًا أبو يعلىٰ الفرّاء في «إبطال التأويلات» (١/ ٥٥، برقم ٣٨- إيلاف). وذكره قوّام السنّة الأصبهاني في «الحجّة في بيان المحجّة» (١/ ٤٧٧ الراية، ط الثانية)، وهو عند الذهبي في «العلو للعلي الغفّار» (ص٢٥٠ - أضواء السلف) مختصر.

فأثبت لله صفةً تختلف عن الصفات، فإن الصفة تتبَع الذَّات[1]، فلا تُكيِّف صفات الله بصفات غيره، ولا تأتِ بلوازم صفات المخلوقين وتُثبتها لله؛ فإنَّ هذا من التكييف والتشبيه.

قوله: «وَلَا تَمثِيلٍ»: يعني لا تُمثِّل صفات الله بصفات خلقه؛ والأصل في هذا قولُ الله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فنفَىٰ المماثلة، وأثبت صفة السمع والبصر؛ فهذه القاعدة الثانية.

إذن القاعدة الأولىٰ: أن الأسماء والصفات توقيفيَّة.

والقاعدة الثانية: أن الأسماء والصفات تُثبت لله من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

ثم يشرح شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أجمله -وطريقتُه هنا أنه يُجمل ثم يُفصِّل-.

فيقول: «فَلَا يَنفُونَ عَنهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلحِدُونَ فِي أَسمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ»: واللَّحد والإلحاد يعني: المَيل، ومنه اللَّحد

---

(١) انظر: «جواب الخطيب البغدادي عن سؤال بعض أهل دمشق في الصفات» (ص٧٤- الملحق باعتقاد الإسماعيلي)، و«الحجَّة في بيان المحجَّة» للأصبهاني (١/ ١٨٩-١٩٠، ٣١٢-٣١٣)، و«طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٠٨)، و«ذم التأويل» لابن قدامة (ص١٥ - البدر)، و«مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٣/ ٢٠٧) و(٥/ ٥٩) و(٣٣/ ١٧٧)، و«الأربعين في صفات ربِّ العالمين» (ص٩٣- العلوم والحكم)، و«العلو للعلي الغفار» (ص٢٥٣)، كلاهما للذهبي، و«الصواعق المرسلة» لابن القيِّم (١/ ٢٢٩)، و«تفسير السعدي» (ص٩٥- الرسالة، ط الأولىٰ)، وانظر: «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

في القبر، أي: الشقُّ في جانب الحفرة الأصلية، فيُلحدون؛ أي: يَميلون في صفات الله وأسمائه عن الصراط المستقيم.

قوله: «وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبحَانَهُ: لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ له، وَلَا يُقَاسُ بِخَلقِهِ ﷻ، فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ أَعلَمُ بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ، وَأَصدَقُ قِيلًا، وَأَحسَنُ حَدِيثًا مِن خَلقِهِ»: هذا تعليلٌ لما سبق؛ فكأنَّ سائلًا يقول: لِمَ منعتَ أن يُسمَّىٰ الله، وأن يُوصَف الله، إلَّا بما جاء في الكتاب وفي السنَّة؟

فأجاب شيخ الإسلام عن هذا بقوله: «لأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لهُ، وَلَا يُقَاسُ بِخَلقِهِ ﷻ، فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ أَعلَمُ بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ، وَأَصدَقُ قِيلًا، وَأَحسَنُ حَدِيثًا مِن خَلقِهِ».

يعني: لو سَألَنا إنسانٌ فقال: لِمَ نقتصر في أسماء الله وصفاته علىٰ ما ورد في الكتاب والسنَّة؟ فهذا هو الجواب.

فلمَّا بيَّن لك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوب الاقتصار علىٰ ما جاء عن الله تعالىٰ في إثبات الأسماء والصفات، قال: «ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون»: لأنهم لا يُخبرون إلَّا بما أوحىٰ الله ﷻ إليهم، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، فأعلمُ النَّاس بالله رُسلُه -عليهم الصلاة والسلام-، وقد قال الله تعالىٰ في حقِّ رسولنا ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

مسألة: أسماء الله وصفاته توقيفية، فباب التسمية والصفة توقيفيٌّ، وباب

الخبر عن الله -أي: تُخبر عن الله- فالأمر فيه واسعٌ، فلك أن تُخبر عن الله ﷻ بأنه موجود، لكن ليس لك أن تُسمِّي الله: «موجود»، وتُخبر عن الله بأنه قديم، وتعني بقولك أنه: الأول الذي ليس قبله شيء، ولذلك يقول ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن أخبر عن الله أنه قديم؛ يُسأل: ما مرادُك بالقديم، فإن ذكر من المعنىٰ ما يتّفق مع قوله ﷺ أنه الأوّل الذي ليس قبله شيء؛ فهذا يسوغ، ولا حرج فيه في باب الإخبار، لا في باب التسمية عن اسم الله أو صفاته؛ لأن هذه توقيفية (١)، ونُخبر عن الله بأنه مُشرِّع، لكن لا نصف الله ولا نُثبت له صفة التشريع، أو نسمِّي الله بأنه المُشرِّع؛ لأن باب الأسماء والصفات بابٌ توقيفي.

قوله: «وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠- ١٨٢]»: وجهُ الشاهد في هذه الآية: أنه جمع ﷻ بينه وبين رُسله فيما يتعلّق بوصفه، فدلَّ ذلك علىٰ أنه لا يجوز لأحدٍ أن يسمِّي الله أو يصف الله ﷻ بغير ما سمَّىٰ اللهُ به نفسه ووصف به نفسه في كتابه، وبغير ما سمّاه به رسوله ﷺ ووصفه به في سنّته؛ لأنه لا أحد أعلم بالله منه ﷻ، ورُسله -تبارك وتعالىٰ- هم المبلِّغُون عنه ﷻ، فنحن نحمد الله ونُثني عليه؛ لأنه هدانا لمَا ضلَّ عنه الآخرون؛ فكثير من الأمم وكثير من الفرق ضلَّت في هذا الباب، فسمَّت الله بأسماء ووصفته بأوصاف لم تأتِ لا في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله ﷺ.

فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، ملءَ الأرض وملءَ السماء أن هدانا

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ٣٠٠-٣٠١)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ١٧١-١٧٣).

إلىٰ معرفة أسمائه وصفاته ﷻ.

وأسماؤه ﷻ لا تُحصىٰ؛ لقول الرسول ﷺ: «مَا قَالَ أَحَدٌ قطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَو حَزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبدُكَ، ابنُ عَبدِكَ، ابنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكمُكَ، عَدلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ، أَو أَنزَلتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَو عَلَّمتَهُ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، أَوِ استَأثَرتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيبِ عِندَكَ، أَن تَجعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلبِي، وَنُورَ صَدرِي، وَجِلَاءَ حُزنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذهَبَ اللهُ هَمَّهُ، وَأَبدَلَهُ مَكَانَ حُزنِهِ فَرَحًا»(١).

فهذا الحديث الثابت فيه دلالة علىٰ أن أسماء الله غير محصورة، ولا يُحيط بها أحد.

قد يقول قائل: قد أثبت الرسول ﷺ أنَّ أسماء الله محصورة في تسعة وتسعين اسمًا، فقال: «إِنَّ لِلَّهِ تِسعَةً وَتِسعِينَ اسمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَن أَحصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(٢).

أقول: لا، هذا الحديث لا يُفيد حصر أسماء الله، إنما يُفيد أنَّ من أسماء الله

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٦-٢٤٧ تحت رقم ٣٧١٢)، وابن حبَّان (٣/ ٢٥٣ تحت رقم ٩٧٢- الإحسان)، والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧ - مصطفىٰ عطا)، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسمٍ إِلَّا وَاحِدًا، حديث رقم (٧٣٩٢)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالىٰ وفضل من أحصاها، حديث رقم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الكثيرة تسعة وتسعين اسمًا؛ من أحصاها دخل الجنَّة، فتسعة وتسعون ليست عدَّة أسماء الله، إنما إحصاء هذا العدد من أسماء الله تعالىٰ، له هذه الخاصيَّة؛ أنَّ من أحصاها دخل الجنَّة، وإلَّا أسماء الله غير محصورة.

قوله: «وَهُوَ سُبحَانَهُ قَد جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفسَهُ بَينَ النَّفيِ وَالإثبَاتِ»: هذه القاعدة الثالثة في الأسماء والصفات؛ فنحن نُثبت لله ما أثبته لنفسه، وننفي عن الله ما نفاه عن نفسه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فليس التنزيه نفيًا محضًا، وليس التنزيه إثباتًا محضًا، إنما نصف الله بما وصف به نفسه في الإثبات، وننفي عن الله ما نفىٰ عن نفسه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

إذن هذه ثلاث قواعد مهمَّة في الأسماء والصفات:

- أنَّ أسماء الله وصفاته توقيفية.

- أنَّ أسماء الله وصفاته تُثبَتُ له ﷻ من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

- أنَّ الأسماء والصفات تُثبت في النفي وفي الإثبات تبعًا لما جاء في كتاب الله ولما جاء في سنَّة رسول الله ﷺ.

ولمَّا انتهىٰ شيخ الإسلام من تقرير طريقة أهل السنَّة والجماعة في الإيمان بالأسماء والصفات، أثنىٰ علىٰ طريقتهم بأنَّها هي الطريق المستقيمة؛ لكونها

طريقة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم، فقال: «فَلَا عُدُولَ لأَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المُستَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ».

وسيورد جملةً من الآيات والأحاديث فيها ذكر أسماء الله وصفاته ﷻ.

❊ ❊ ❊

أسئلة الدرس

سؤال (١): ما قولكم في الفتنة المؤخَّرة من طلبة العلم في هذه البلاد المباركة؟

الجواب: ما فهمت السؤال، علىٰ العموم أنا أقول كلمة عامَّة؛ وهي نصيحة عامَّة لكلِّ طلبة العلم: أنا أنصح دائمًا طلَّاب العلم ألا يتدخَّلوا في المسائل العامَّة التي تحصل بين العلماء وطلَّاب العلم الكبار، حتىٰ تنجلي المسألة، ويبقىٰ طالب العلم علىٰ أصله في طلب العلم من الكتاب والسنَّة واتِّباع أهل العلم وأهل الفضل، وينتظر النتيجة النهائية.

أمَّا إذا حصلت مشكلة بين هذا العالم وهذا الطالب، أو بين هذا الطالب الكبير وهذا العالم، وصار الشباب في أخذ وردٍّ في بعض المسائل، فهنا يختلف الشباب؛ وينقسمون؛ هذا حزب مع هذا العالم، وهذا حزب مع هذا الطالب، وهذا لا يصلح.

فينبغي لطالب العلم أن يُوطِّن نفسه، وأن ينأىٰ بنفسه عن هذا الباب، وأن يجعل طريقته الأصلية هي طلب العلم الشرعي من كتاب الله ومن سنَّة رسول الله ﷺ، ويَلزم أهل العلم الكبار ويأخذ منهم، أمَّا أن يَشغل نفسه ببُنيَّات الطريق؛ فإنه

يوشك ألا يصل إلىٰ بُغيته، ويوشك أن ينحرف عن الجادَّة ويتعصَّب، فإذا دخل التعصُّب، ودخل التقليد، ودخلت المتابعة لهؤلاء وهؤلاء؛ حصلت المشكلة.

ولذلك ينبغي لطالب العلم دائمًا أن يُوطِّن نفسه، وأن ينأىٰ بنفسه عن مثل هذه المشاكل، وعن مثل هذه الأمور، ويكون تابعًا لأهل العلم المعروفين بأنهم من أهل السنَّة والجماعة، وإذا حصلت مسألة لم يتَّضح فيها الحقُّ؛ لا ينحاز إلىٰ هنا أو هنا، إنما يَلزم الدليل، وينتظر علىٰ ما تنجلي به المسألة، ولا يسلك مسلك التعصُّب ولا مسلك التقليد، أسأل الله التوفيق للجميع.

❊ ❊ ❊

سؤال (٢): ما معنىٰ: علىٰ فهم السَّلف الصالح؟

الجواب: معناها: أنَّك أيُّها المسلم لا تَسلم، ولا تَغنم في متابعة الدِّين وسُلوك المَحجَّة، إلا باتِّباع ما كان عليه السَّلف الصالح، ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل لتلميذه الميموني: «إيَّاك أن تتكلَّم في مسألة ليس لك فيها إمام»(١).

فلابدَّ أن تحرص علىٰ أن تتبع ما كان عليه السلف الصالح، وفي المسائل التي تكلَّموا فيها لا يجوز لك أن تُحدث قولًا خارجًا عن أقوالهم، وهذا أصلٌ من أصول الفقه، فقد نصَّ علماء الأصول أنه إذا اختلف العلماء من الصحابة أو مِن السلف في المسألة، في فهم الآية أو الحديث، علىٰ أقوال؛ لا يجوز إحداثُ قول خارج عن أقوالهم، ولذلك لمَّا فسَّر ابنُ قتيبة قول الرسول ﷺ في رؤية

---

(١) أسنده ابنُ الجوزي في «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» (ص١٧٨)، ونقله ابنُ تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٢٩١).

الهلال: «فَإِن غُمَّ عَلَيكُم فاقدُرُوا لَهُ»[١]. فقال: «فَاقدُرُوا لَهُ» قال: أي: اقدُرُوا له بحساب أهل الفلك[٢]. ردَّ عليه ابنُ عبد البرِّ، وقال: «هُوَ قَولٌ قَد ذَكَرنَا شُذُوذَهُ وَمُخَالَفَةَ أَهلِ العِلمِ لَهُ»[٣]؛ لأن القاعدة: «لزومُ فهم المسائل علىٰ ضوء فهم السَّلف»؛ ففي المسائل التي تكلَّموا فيها لا تخرج عن أقوالهم، وفي المسائل التي لم يتكلَّموا فيها لا تخرج عن طريقتهم في الاستدلال والاستنباط.

فتنظر ما هي القواعد التي بنىٰ عليها السلف فقههم واستنباطهم وتمشي عليها، ولذلك يكفي في ردِّ بعض الأقوال أن تقول: هذا قولٌ خارج عن سَنن أهل العلم في الاستنباط والاستدلال، والآن هناك من يدعو إلىٰ التجديد في أصول الفقه، ويقول: نُجدِّد في أصول الفقه، ويأتي إلىٰ (الإجماع)، فيقول: هو اتِّفاقُ الجماهير، ليس العلماء فقط، بل جماهير الناس، جمهورية ديمقراطية! إذا اتَّفق الناس علىٰ كلمة؛ هذا إجماع! وهذا خروج عن سَنن أهل العلم في معنىٰ الإجماع؛ فإن الإجماع اتِّفاقُ مُجتهدي علماء الأمة في عصر من الأعصار.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب: هَل يُقَالُ: رَمَضَانُ أَو شَهرُ رَمَضَانَ، وَمَن رَأَىٰ كُلَّهُ وَاسِعًا، حديث (١٩٠٠)، ومسلم في كتاب الصيام، باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، حديث (١٠٨٠)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا رَأَيتُمُوهُ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيتُمُوهُ فَأَفطِرُوا، فَإِن غُمَّ عَلَيكُم فَاقدُرُوا لَهُ»».

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٠٦- أحمد صقر).

(٣) «التمهيد» (١٤/ ٣٥٢- وزارة الأوقاف المغربية).

وعليه؛ فإن اتِّباع فهم السَّلف الصالح بهذين المحورين:

في المسائل التي تكلَّموا فيها لا نخرج عن أقوالهم، وفي المسائل التي لم يتكلَّموا فيها لا نخرج عن طريقتهم في الاستدلال والاستنباط؛ ولذلك جعلوا من صفات المجتهد التي ينبغي أن يتَّصف بها قبل أن يتصدَّر للاجتهاد؛ أن يكون عالمًا بمواطن الإجماع وبمواطن الخلاف، وذلك حتىٰ لا يأتي إلىٰ مسألة مُختلف فيها فيخرج عن خلافهم، وفي مسألة مُجمعٍ عليها فيذكر خلافها.

فقول الإمام أحمد للميموني: «لا تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام»، إذا كانت من النوع الأوَّل؛ فواضح، وإذا كانت من النوع الثاني؛ فقوله: «ليس لك فيها إمام»؛ يعني: في طريقة الاستنباط والاستدلال، فلا تخرج عن طريقة السَّلف الصالح، هذا معنىٰ لزوم فهم السَّلف الصالح.

وهاهنا سؤال: لماذا كان فهم السلف الصالح شعار أهل السنَّة والجماعة؟

والجواب: لأنَّ الله تعالىٰ أمَرنا بذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وسبيل المؤمنين أوَّل ما يَصدُق يَصدُق علىٰ السلف الصالح، وأوَّلهم الصحابة، ولذلك جعل الرسول ﷺ شعار الفرقة التي تنجو، والتي يكون لها النصر والظهور: «مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي»[1].

ولذلك قال ﷺ في حديث أبي نجيح العرباض بن سارية ﷺ: «فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي

---

(١) سبق تخريجه.

وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ مِن بَعدِي»(١).

فما المراد بسنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعده؟

المراد: طريقتُهم في اتِّباع أثره ﷺ، وفي فهمهم وتعاملهم مع ما جاء به -عليه الصلاة والسلام-.

إذا علمتَ هذا؛ علمتَ لِمَ كان شعارُ أهل السنَّة والجماعة، لزوم ما كان عليه السَّلف الصالح، وتقييد الفهم علىٰ طريقة السَّلف الصالح.

* * *

سؤال (٣): ما حكم قول: إن هناك فرقًا بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وما حكم قول: أنت جماعة ولو كنتَ وحدك؟

الجواب: أمَّا قولهم: «أنت جماعة ولو كنت وحدك»؛ هذا حق، إذا قيلت لشخص هو علىٰ السنَّة حقًّا؛ أي: أنت علىٰ دين قويم، وعلىٰ صراط مستقيم، ولو كنت لوحدك، كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تستوحش طرق الهدىٰ لقلَّة أهلها، ولا تغترَّنَّ بكثرة الهالكين، ولا يضرّك قلَّةُ السالكين»(٢).

وقد قال الله تعالىٰ في نبيِّه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل:١٢٠]، فإذا عرفتَ الحقَّ ولزمته لا يضرُّك أن النَّاس يُخالفونك، ما دمت

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) عزاه النووي في «التبيان في آداب حملة القرآن» للحاكم (ص١١٦- ابن حزم)، وقد أخرجه ابنُ عساكر في «تبيين كذب المفتري» (ص٣٣١- الكتاب العربي) من طريق الحاكم بلفظ: «لَا تستوحش طرق الهدىٰ لقلَّة أَهلهَا، وَلَا تغترَّنَّ بِكَثْرَة الهالكين».

تسير على هدًى وعلى يقين، وعرفت أن ما أنت عليه هو الحق؛ بـ«قال الله»، وبـ«قال رسوله»، وما جاء عن السلف والصحابة، واطمأننت إليه؛ فالزمه ولا يضرك مخالفة النَّاس؛ فأنت لوحدك جماعة، والرسول ﷺ يقول: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ**»(١).

أَمَّا قولهم: هناك فرقٌ بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة؛ فهذا التفريق بدعة، وإحداثٌ في الدِّين؛ لأنه قول لم يقُله أحدٌ من السلف، ويترتَّب عليه أنَّ الفرقة الناجية غير منصورة، وهذا كلامٌ لا يقول به السَّلف الصالح، فهو إحداث قولٍ في فهم الحديث، لم يأتِ عن السَّلف الصالح، فحكمه أنه بدعة.

❊ ❊ ❊

سؤال (٤): ما نوعُ التحريف فيمن قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، بنصب لفظ الجلالة؟

الجواب: هذا من التحريف في اللفظ؛ لأنه جعل الفاعل للتكليم هو موسى عليه السلام، وهذا ذكره العلماء مثالًا لهذا الباب(٢)، فهذا تحريفٌ في اللفظ، وتصرُّفٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى بما لا يحلُّ ولا يجوز.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، حديث رقم (١٤٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» لابن تيمية (٨/ ١٥٠)، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/ ٢١٧-٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٧٤- سلامة)، و«معارج القبول» لحافظ حكمي (١/ ٣٥٧-٣٥٨- ابن القيم)، «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» لابن عثيمين (ص١٨- الوطن).

سؤال (٥): قلتم -بارك الله فيكم-: إنَّ الله ﷻ يُخبَر عنه بأنه المُشرِّع، ولا يوصف بذلك، وقد قال الله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى:١٣]، الآية، ألا يؤخذ من هذا صفةُ التشريع له؟

الجواب: يؤخذ من الآية أنَّ الله يُشرِّع لنا، فيُخبر عنه أنه مُشرِّع كما أخبر الله ﷻ، لكن لا يسمَّىٰ بأنه مشرِّع، فلا يُقال: من أسمائه المُشرِّع، أمَّا أنه يوصف فنقول: هذه الآية جاءت في الإخبار عنه ﷻ هذا باب الخبر، ولم يأتِ في كلام السلف -رضوان الله عليهم- وصف الله بأنه مُشرِّع، فنحن نقف في فهم النصوص وما يتعلَّق بها علىٰ ما جرىٰ عليه السَّلف الصالح -رضوان الله عليهم-.

❊ ❊ ❊

سؤال (٦): قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، قال: هل هذا تحريف لفظيٌّ أم معنويٌّ؟

الجواب: هذا تحريف لفظيٌّ ومعنويٌّ؛ هو تحريف لفظيٌّ إذا فسَّروا: «ناظرة» بمعنىٰ منتظرة، وهو تحريف معنويٌّ؛ لأنه هذا المعنىٰ الذي أرادوه، بدل معنىٰ الرؤية، فاجتمع فيه المعنيان، وأهل العلم ذكروه في باب التحريف اللفظيِّ.

❊ ❊ ❊

سؤال (٧): هلَّا بيَّنتم لنا الفرق بين التشبيه والتمثيل والتكييف؟

الجواب: التشبيه والتمثيل واحد، الفرق في العبارة فقط تقول: يُشبه كذا، أو تقول: مثل كذا، والتكييف أيضًا، لكنَّك في التكييف تُبيِّن الكيفية، وفي

التشبيه تُطلق الشبه، وفي التمثيل تُطلق المثل، تقول: مثل الله في كذا كذا، والتشبيه تقول: يُشبه الله كذا، فالتشبيه والتمثيل والتكييف كلُّها في الحقيقة يجمعها معنىٰ واحد؛ وهو مشابهة الله بخلقه، ولذلك جاء النصُّ في القرآن علىٰ التمثيل، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، وشمل هذا معنىٰ التشبيه، ومعنىٰ التكييف، ولذلك يقول بعض أهل العلم من المعاصرين: لو اقتصرنا علىٰ كلمة «لا مثيل له» و«لا يُمثَّل بغيره»؛ لكفىٰ ذلك عن كلمة التشبيه وعن كلمة التكييف، فهي تُذكر من باب الترادف لتوضيح المعنىٰ.

* * *

سؤال (٨): ما مدىٰ صحَّة قول: الله موجود في السماء؟

الجواب: يعني إذا أردتَ بكلمة السَّماء جهة العلوِّ؛ فالله في السَّماء، كما قال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، ولمَّا سأل الرسول ﷺ الجارية فقال لها: «**أَينَ اللهُ؟ فَقَالَت: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: مَن أَنَا؟ قالت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: أَعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ**»(١).

فالله في السَّماء؛ أي: العلو، فقولك: «الله موجود في السَّماء» صحيح، إذا أردت بالسَّماء جهة العلوِّ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: تَحرِيمِ الكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ، وَنَسخِ مَا كَانَ مِن إِبَاحَتِهِ، حديث رقم (٥٣٧)، عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

أمَّا إذا أردت بالسَّماء السَّماء هذه التي نراها، وجعلتها ظرفًا لله تعالىٰ فهذا لا يجوز؛ لأن عقيدة أهل السنَّة والجماعة أن الله مستوٍ علىٰ عرشه فوق سمواته.

❊ ❊ ❊

سؤال (٩): هل يختلف الصحابة في العقيدة، وهل يُستدلُّ بهذا الاختلاف علىٰ جواز وقوع الاختلاف في الأصول؟

الجواب: قلنا لكم: نعم؛ حدث اختلافٌ بين السَّلف في بعض المسائل التي تدخل في العقيدة، مثل اختلافهم هل رأىٰ محمَّد ﷺ ربَّهُ، وذكر شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً من هذه المسائل[1]. وشيخ الإسلام يُقرِّر أن الاختلاف يدخل في المسائل العلمية وفي المسائل العملية، لكن أصول الدِّين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإيمان بالله كأصول عامة؛ هذه المسائل لا ينبغي أن يكون فيها خلاف، ولذلك من أهل العلم من فرَّق بين هذه المسائل وبين هذه المسائل، وينبغي أن يُفهم أن شهادة: (أن لا إله إلا الله) وفهم معناها والقيام بها؛ هذا هو أصل الدخول في الدِّين، فمن لم يتحقَّق لديه هذا الأمر؛ ما فهم الدِّين، وما عرف الدِّين، فكيف يُقال إنه مسلم، فلا بدَّ أن يحقِّق معنىٰ شهادة: (أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) وأن يعرفها، فإذا عرفها هذا هو الأصل.

ومسائل العقيدة تتفاوت من حيث الغموض والوضوح، فقد تأتي مسائل

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٥٠٢-٥٠٦) و (١٩/ ٢٠٧ وما بعدها).

يختلف فيها الناس ويخطئ فيها العالم من أهل السنَّة والجماعة، ولا يُوافَق عليها وعلىٰ كلامه فيها، فهذه أمور جعلها أهل العلم من المسائل التي يتطرَّق إليها الاختلاف، وهناك جماعة من أهل السنَّة لهم مسائل خالفوا فيها، وكلامهم فيها محلُّ نظر عند أهل السنَّة والجماعة، وهم لم يخرجوا بهذه المسألة عن أهل السنَّة والجماعة؛ للقاعدة التي ذكرناها لكم من أنه لا بدَّ من تحقُّق قيام الحجَّة بثبوت الشروط وانتفاء الموانع، حتىٰ يُحكم علىٰ المخالف بما يُناسبه من البدعة، أو من الكفر، أو من الضلال، ونحو ذلك.

* * *

سؤال (١٠): هل المنهج السلفي يوصف بالطائفة؟

الجواب: الرسول ﷺ قال: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي**»(١)، فوصفها بأنَّها طائفة، فيصحُّ وصف أهل السنَّة بأنهم طائفة، ووصف الرسول ﷺ أهل السنَّة كلهم بأنهم فرقة من ضمن الفرق الثلاث والسبعين؛ كما في حديث الافتراق: «**وَسَتَفتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»(٢).

فهم فرقة وهم طائفة، لكن إن سألتني: هل المنهج السلفي طائفةٌ وفرقةٌ كهذه الفرق الضالَّة؟

أقول لك: لا، هو الإسلام الصحيح؛ السالم من البدعة، والسالم من

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الضلالة، وهو الإسلام الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون في كلِّ مكان، هذا المنهج هو اتِّباع ما كان عليه الرسولُ ﷺ وأصحابه، لزوم الجماعة هو الإسلام الحقُّ، والدِّين الحق الذي ينبغي أن يكون عليه أهلُ الإسلام، وهو الصراط المستقيم، ومَن خالف هذا الصراط فهو بعيد وقريب منه بحسَب بُعده وقربه منه.

* * *

وَقَد دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُملَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ فِي سُورَةِ الإِخلَاصِ الَّتِي تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي أَعظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَقَولُهُ سُبحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وَقَولُهُ سُبحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

وَقَولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ﴾ [سبأ:٢].

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

وَقولُهُ: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فصلت:٤٧].

وَقولُهُ: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وَقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

وَقولُهُ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وَقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨].

وَقولُهُ: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف:٣٩].

وَقولُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وَقولُهُ: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

وَقولُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وَقولُهُ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [المائدة:١١٩].

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ [النساء:٩٣].

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ [محمد: ٢٨].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة:٤٦].

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٣].

وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة:٢١٠].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١-٢٢].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥].

وَقَولُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

وَقَولُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

وَقَولُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٣-١٤].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩].

وَقَولُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وَقَولُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وَقَولُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٩].

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

وَقَولُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣].

وَقَولُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤].

وَقَولُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠].

وَقَولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦].

وَقَولُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

وَقَولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

وَقَولُهُ عَن إِبلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

وَقَولُهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨].

وَقَولُهُ: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

وَقَولُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقولُهُ: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١].

وقولُهُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:١-٢].

وقولُهُ: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١].

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٢].

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٤].

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وقولُهُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥].

فِي [سَبعةِ][1] مَوَاضِعَ: [فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ؛ قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي

---

(١) هكذا في المطبوع مع الشرح، والذي في المخطوط و«الفتاوى»: «وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ
=

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤].

وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس:٣].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الرعد:٢].

وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهَ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الفرقان:٥٩].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة:٤].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الحَدِيدِ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد:٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥].

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٨].

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

=

ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤]: في ستّة مواضعَ... إلخ»، وهذا أصحُّ؛ لأن الآية الثانية لم ترد في القرآن إلا في ستّة مواضع.

وَقَولُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦].

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد:٤].

وَقَولُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧].

﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠].

وَقَولُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وَقَولُهُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٨٧].

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢].

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة:١١٦].

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٥].

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣].

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وقولُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢].

وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧].

وقولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:١٠١].

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:١٠٢].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣].

وَقَولُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣].

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦].

وَقَولُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

وَهَذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَن تَدَبَّرَ القُرآنَ طَالِبًا لِلهُدَى مِنهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ.

الشرح

قول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَد دَخَلَ فِي هِذِهِ الجُملَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ فِي سُورَةِ الإِخلَاصِ الَّتِي تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١-٤]».

قلت: قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: الصمد هو الذي يُصمد إليه في طلب الحوائج؛ أي: يُقصد في طلب الحوائج وتُطلب منه ﷻ، وهو الذي يُحتاج إليه في كلِّ شيء، فاسم الله (الصمد) يتضمَّن معنىٰ الربوبية؛ لأنه الذي يُرجع إليه في كل شيء؛ فهو الذي خلق الخلق، وهو الذي رزقهم، وهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يُنزل المطر، وهو الذي يدبِّر شئون هذا الكون جميعه ﷻ.

وهذا معنىٰ توحيد الربوبية، إذ معناه: توحيد الله بأفعاله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وغير ذلك.

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾: هاتان من الصفات المنفيَّة عن الله، فما ذكر في الآيتين قبلُ صفاتٌ في الإثبات، وما ذكر في هذه الآية وما بعدها صفاتٌ في النفي.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: أي: فهو المستحقُّ وحده سبحانه أن تُصرف له العبادة؛ لأنه ليس لهُ كفءٌ ولا نظير، فهو الإله المتفرِّد في ألوهيته وربوبيَّته وأسمائه وصفاته.

وتمتاز هذه السورة بأنَّ مقاطعها وآياتها تُفسِّر بعضُها بعضًا، فقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفسرِّه قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ يعني: لِمَ كان أحدًا؟ الجواب: لأنه الصمد. ولمَ كان الصمد؟ الجواب: لأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

فهذه السورة تضمَّنت هذه المعاني المتعلِّقة بأسماء الله وصفاته ﷻ، ولذلك

هي تعدل في المعنىٰ ثُلث القرآن، إذ فيها بيانُ توحيد الله ﷻ.

ثم ثنَّىٰ الشيخ بعد ذلك بأعظم آية في كتاب الله، كما وردَ في الحديث عَن أُبيِّ بنِ كَعبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا المُنذِرِ، أَتَدرِي أَيُّ آيَةٍ مِن كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعظَمُ؟» قَالَ: قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا المُنذِرِ، أَتَدرِي أَيُّ آيَةٍ مِن كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعظَمُ؟» قَالَ: قُلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهنِكَ العِلمُ أَبَا المُنذِرِ!»(١).

فآية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله، وقد تضمَّنت جُملةً من أسماء الله وصفاته ﷻ في النفي وفي الإثبات.

ثم أورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ آياتٍ كثيرة تتعلَّق بأسماء الله وصفاته علىٰ سبيل التفصيل؛ وختم هذا الفصل بقوله: «**وَهَذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَن تَدَبَّرَ القُرآنَ طَالِبًا لِلهُدَىٰ مِنهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ**».

أقول: مراد المصنِّف أن ما تضمَّنه القرآن من الأسماء والصفات كثيرٌ؛ وهذه جُملة منها، ونذكر هاهنا أمورًا:

أوَّلًا: القاعدة العامَّة: أنَّ ما تضمَّنته هذه الآيات من الأسماء والصفات نؤمن به، سواء كانت صفاتٍ في الإثبات أو صفاتٍ في النفي، نؤمن بها ونؤمن بمعناها ونكِل كيفيتها إلىٰ الله تعالىٰ، فنُثبت له الأسماء والصفات علىٰ جهة الكمال علىٰ الوصف اللائق بجلاله، بدون تشبيه ولا تحريف، ولا تعطيل ولا تكييف؛

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث رقم (٨١٠).

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، هذه القاعدة المُطَّرِدة عند أهل السُّنَّة والجماعة.

الأمر الثاني: أنَّ أهل السنَّة يُثبتون جميع الأسماء والصفات التي علَّمنا الله إيَّاها في كتابه، وعلَّمنا إيَّاها رسولُ الله ﷺ بلا تفريق بينها، فلا نقول كالأشاعرة مثلًا: نُثبت سبع صفات؛ وهي صفات الذات، وما عداها لا نُثبته.

وحينما نُثبتها نُثبت معانيها، نُثبت ما جاء منها على الإثبات بدون تشبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فنحن لا نقول كالمعتزلة: الله سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، إنما نُثبت الصفات ونُثبت معانيها بحسَب وضعها في اللِّسان العربي؛ لأن الله لم يُخاطب الناس بما لا يعلمون، وأمَّا كيفيتها فنكِلها إلى الله ﷻ.

وأهل السنَّة والجماعة يخالفون بعض الأشاعرة الذين يُفوِّضون في المعنى وفي الكيف، فيقولون: نُثبت الصفة ونُفوِّض معناها وكيفيتها، وهذا في الحقيقة تعطيل؛ لأنه لا معنى لإثبات الصفة مع التفويض في معناها وفي كيفيتها، لكن أهل السنَّة يُفوِّضون في الكيف، ولا يُفوِّضون في المعنى، فكلُّ الأسماء والصفات التي تضمَّنتها هذه الآيات وغيرُها نُثبتها على القاعدة التي علَّمنا إيَّاها الشيخ -جزاه الله خيرًا- أي: إثبات مِن غير تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف؛ فنُثبت معانيها على الوجه اللائق بالله ﷻ، ونُفوِّض في كيفيتها، خلافًا للأشاعرة المفوِّضة، والأشاعرة المؤوِّلة الذين يثبتون سبعًا -على طريقتهم-

ويتأوَّلون الأخرىٰ، وخلافًا للمعتزلة الذين يُثبتون الاسم بلا معنىٰ، ويُعطِّلون الصفة، فيقولون: رحمن بلا رحمة، سميع بلا سمع، إلىٰ آخر الكلام الذي يقولونه! وهذا كلام باطل.

❊ ❊ ❊

فَصلٌ: ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيهِ، وتُعَبِّرُ عَنهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ رَبَّهُ ﷻ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهلُ المَعرِفَةِ بِالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

فَمِن ذَلِكَ: مِثلُ قَولِهِ ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا كُلَّ لَيلَةٍ حِينَ يَبقَىٰ ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَن يَدعُونِي فَأَستَجِيبَ لَهُ، مَن يَسأَلُنِي فَأُعطِيَهُ، مَن يَستَغفِرُنِي فَأَغفِرَ لَهُ»[1]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَولُهُ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبدِهِ المُؤمِنِ التَّائِبِ مِن أَحَدِكُم بِرَاحِلَتِهِ»[2]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَولُهُ ﷺ: «يَضحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَينِ يَقتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدخُلُ الجَنَّةَ»[3]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَولُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُربِ غِيَرِهِ، يَنظُرُ إِلَيكُم أَزِلِينَ قَنِطِينَ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ مِن آخِرِ اللَّيلِ، حديث رقم (١١٤٥)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، حديث رقم (٧٥٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التَّوبَةِ، حديث رقم (٦٣٠٨) و(٦٣٠٩)، ومسلم كتاب التوبة، باب فِي الحَضِّ عَلَىٰ التَّوبَةِ وَالفَرَحِ بِهَا، حديث رقم (٢٦٧٥) و(٢٧٤٤) و(٢٧٤٥) و(٢٧٤٦) و(٢٧٤٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الكَافِرِ يَقتُلُ المُسلِمَ، ثُمَّ يُسلِمُ، فَيُسَدِّدُ بَعدُ وَيُقتَلُ، حديث رقم (٢٨٢٦)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، حديث رقم (١٨٩٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فَيَظَلُّ يَضحَكُ يَعلَمُ أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيبٌ»[١]. حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَولُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلقَىٰ فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَل مِن مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجلَهُ [وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيهَا قَدَمَهُ]، فَيَنزَوِي بَعضُهَا إِلَىٰ بَعضٍ، فَتَقُولُ: قَط قَط»[٢]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَولُهُ: «يَقُولُ تَعَالَىٰ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيكَ وَسَعدَيكَ. فَيُنَادِي بِصَوتٍ: إِنَّ اللهَ يَأمُرُكَ أَن تُخرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعثًا إِلَىٰ النَّارِ»[٣]. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَولُهُ: «مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تَرجُمَانٌ»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٠١)، وابن ماجه في المقدمة، باب فِيمَا أَنكَرَتِ الجَهمِيَّةُ، حديث رقم (١٨١)، عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه. وحسَّنه الألباني في «تخريج السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٠٠).

تنبيه: لفظ الحديث عند مَن أخرجه: «ضَحِكَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُربِ غِيَرِهِ». قَالَ أَبُو رَزِينٍ: «فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَضحَكُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ العَظِيمُ! لَن نَعدَمَ مِن رَبٍّ يَضحَكُ خَيرًا!».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب الحَلِفِ بِعِزَّةِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ، حديث رقم (٦٦٦١)، ومسلم في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبَّارون..، حديث رقم (٢٨٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قَولِهِ: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، حديث رقم (٤٨٥٠)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبَّارون..، حديث رقم (٢٨٤٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، بمعناه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج:٢]، حديث رقم (٤٧٤١) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قوله: «**يقول الله لآدم: أخرج بعث النار...**»، حديث رقم (٢٢٢)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يَومَ القِيَامَةِ مَعَ الأَنبِيَاءِ وَغَيرِهِم، =

وَقَولُهُ فِي رُقيَةِ المَرِيضِ: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسمُكَ، أَمرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ، كَمَا رَحمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجعَل رَحمَتَكَ فِي الأَرضِ، اغفِر لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنزِل رَحمَةً مِن رَحمَتِكَ، وَشِفَاءً مِن شِفَائِكَ عَلَىٰ هَذَا الوَجعِ؛ فَيَبرَأَ»(١). حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ.

وَقَولُهُ: «أَلَا تَأمَنُونِي، وَأَنَا أَمِينُ مَن فِي السَّمَاءِ!»(٢). حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

=

حديث رقم (٧٥١٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث علىٰ الصدقة ولو بشق تمرة، حديث رقم (١٠١٦)، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب كَيفَ الرُّقَىٰ، حديث رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩/ ٣٨١-٣٨٢، رقم ١٠٨٠٩، ١٠٨١٠)، والحاكم (١/ ٤٩٤، رقم ١٢٧٢)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الحاكم: «قَدِ احتَجَّ الشَّيخَانِ بِجَمِيعِ رُوَاةِ هَذَا الحَدِيثِ غَيرِ زِيَادَةَ بنِ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ شَيخٌ مِن أَهلِ مِصرَ قَلِيلُ الحَدِيثِ». وتعقَّبه الذهبيُّ بقوله: «قال البخاري وغيره: منكر الحديث». والحديث قال فيه الألبانيُّ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٧٤): «ضعيف جدًّا».

وأخرجه أحمد (٣٩/ ٣٧٩ تحت رقم ٢٣٩٥٧)، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه. وضعَّفه محقِّقو «المسند»، فقالوا: «إسناده ضعيف؛ لضعف أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، ولإبهام الأشياخ الذين روىٰ عنهم».

قلت: لكنهم ذكروا في التخريج طرقًا ينبغي أن يرتقي بها الحديث إلىٰ درجة الحسن لغيره، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بَعثِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَخَالِدِ بنِ الوَلِيدِ رضي الله عنه، إِلَىٰ اليَمَنِ قَبلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، حديث رقم (٤٦٥١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَقَوْلُهُ: «وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُم عَلَيهِ»[(١)].

(١) يُشير شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ حديث الأوعال المشهور، وقد أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٢-٢٩٣، رقم ١٧٧٠)، وأبو داود في كتاب السنَّة، باب فِي الجَهمِيَّةِ، حديث رقم (٤٧٢٣)، والترمذي في أبواب التفسير، باب ومن سورة الحاقَّة، حديث رقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (١٩٣)، والحاكم (٢/ ٣٢٦، رقم ٣١٣٧)، وأبو يعلىٰ (١٢/ ٧٥-٧٦، رقم ٦٧١٣)، وابن أبي عاصم في «السنَّة» (١/ ٢٥٣، رقم ٥٧٧) وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٣٤-٢٣٥، الشهوان)، والآجري في «الشريعة» (٣/ ١٠٨٧-١٠٩٠، رقم ٦٦٣ و٦٦٤ و٦٦٥)، وابن منده في «التوحيد» (١/ ٦٣-٦٤، رقم ٤٢ - الفقيهي)، وابن بطة في «الإبانة» (٧/ ١٤٨-١٥٠، رقم١٠٧)، والضياء المقدسي في «المختارة» (٨/ ٣٧٣-٣٧٧)، وغيرهم، عن العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ولفظه عند أحمد والحاكم وأبي يعلىٰ: عَن عَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالبَطحَاءِ، فَمَرَّت سَحَابَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَدرُونَ مَا هَذَا؟»، قَالَ: قُلنَا: السَّحَابُ، قَالَ: «وَالمُزنُ» قُلنَا: وَالمُزنُ، قَالَ: «وَالعَنَانُ»، قَالَ: فَسَكَتنَا، فَقَالَ: «هَل تَدرُونَ كَم بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟» قَالَ: قُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «بَينَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِن كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَفَوقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوعَالٍ بَينَ رُكَبِهِنَّ وَأَظلافِهِنَّ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ العَرشُ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَاللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فَوقَ ذَلِكَ وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ مِن أَعمَالِ بَنِي آدَمَ شَيءٌ».

ولفظ أصحاب السنن والآخرين نحوه إلا أنه ذكر أن بين السماء والتي تليها ثنتين أو ثلاثًا وسبعين سنة، وليس فيه: «وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ مِن أَعمَالِ بَنِي آدَمَ شَيءٌ».

وهذا الحديث اختلف أهل العلم في ثبوته؛ فحسَّنه الترمذي، وأورده ابنُ خزيمة في كتاب التوحيد الذي شرط ألا يُورد فيه إلا ما اتَّصل سندُه وعُدِّلت نقلتُه، وحكم ابنُ منده باتصال إسناده، وأورده الضياء في «الأحاديث المختارة»، وحسَّنه شيخ الإسلام ابنُ تيمية كما هنا، =

حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ.

وَقَولُهُ لِلجَارِيَةِ: «أَينَ اللهُ؟». قَالَت: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَن أَنَا؟». قَالَت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «أَعتِقهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ»(١). رَوَاهُ مُسلِمٌ.

وَقَولُهُ: «أَفضَلُ الإِيمَانِ أَن تَعلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيثُمَا كُنتَ»(٢). حَدِيثٌ حَسَنٌ.

=

ودافع عنه في «المناظرة الواسطية» كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٩١-١٩٢)، ودافع عنه ابنُ القيِّم في «تهذيب السنن» (١٣/ ٥-٦، بحاشية العون)، وردَّ علىٰ من ضعَّفه. وأشار البخاريُّ إلىٰ انقطاع في سنده كما في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٥٩)، وتابعه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٨٤)، وذكر الذهبيُّ في «العلوِّ للعلي الغفار» (ص٦٠) أن في سنده مجهولًا. وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (١٢٤٧).

وأمَّا اللفظ الذي ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فهو ثابتٌ من قول ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا غير مرفوع؛ أخرجه الطبراني (٨٩٨٧)، والدارمي في «الرد علىٰ الجهمية» (٨١)، وابنُ خزيمة في كتاب «التوحيد» (١/ ٢٤٢-٢٤٤)، وابنُ بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (٧/ ١٧١-١٧٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٧٩)، واللالكائي في «شرح أصول أهل السنة والجماعة» (٦٥٩). وقال الذهبي في «العلو» (١٠٣ -مختصر الألباني): «إسناده صحيح»، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٦- القدسي) للطبراني، وقال: «رجاله رجال الصحيح».

قلت: وهذا الموقوف الصحيح، مثلُه لا يقال بالرأي، خاصَّة وأن ابن مسعود لم يُعرف بالأخذ عن أهل الكتاب، ومع تلقِّي الحديث بالقبول عند الأئمَّة؛ فإن الحُكم بقبول الحديث هو الظاهر، ولا يؤثِّر في ذلك ما يُذكر من ضعف سنده مرفوعًا؛ فإنه ضعفٌ من جهة الرواية، وقبولُه من غير هذه الجهة، والله أعلم.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وضعَّفه الألبانيُّ في

=

وَقَولُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُم إِلَىٰ الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبصُقَنَّ قِبَلَ وَجهِهِ، وَلَا عَن يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجهِهِ، وَلَكِن عَن يَسَارِهِ، أَو تَحتَ قَدَمِهِ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَولُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبعِ وَالأَرضِ وَرَبَّ العَرشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ، مُنزِلَ التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفسِي، وَمِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ؛ اقضِ عَنِّي الدَّينَ، وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ»(٢). رِوَايَةُ مُسلِم.

وَقَولُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصوَاتَهُم بِالذِّكرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اربَعُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُم؛ فَإِنَّكُم لَا تَدعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا. إِنَّ

=

«الضعيفة» (٢٥٨٩). لكن للمتن شواهد؛ فإنه يشهد له حديث جبريل وذكر الإحسان فيه، فإنه أفضل الإيمان، وحديث: «اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كُنتَ»، فإن الرسول ﷺ إنَّما يعلِّمه ما يحقِّق له الأفضل في الإيمان، والله الموفِّق.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ وَقِصَّةِ أَبِي اليَسَرِ، حديث رقم (٣٠٠٨)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، بلفظ قريب. وأخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب حَكِّ البُزَاقِ بِاليَدِ مِنَ المَسجِدِ، حديث رقم (٤٠٦)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد، حديث رقم (٥٥١)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُم يُصَلِّي، فَلَا يَبصُقُ قِبَلَ وَجهِهِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجهِهِ إِذَا صَلَّىٰ».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (٢٧١٣)، عن أبي هريرة وفاطمة رضي الله عنهما.

الَّذي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِن عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَولُهُ: «إِنَّكُم سَتَرَونَ رَبَّكُم كَمَا تَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ، فَإِنِ استَطَعتُم أَلَّا تُغلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ وَصَلَاةٍ قَبلَ غُرُوبِهَا؛ فَافعَلُوا»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

الشرح

بعدَ أن بيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ القرآن يتضمَّن أسماء وصفات الله تَعَالَىٰ، شرعَ يُبيِّن أنَّ في السنَّة أيضًا بيانًا لهذه الأسماء والصفات، وهو في ذلك يُقرِّر ما سبق مِن كلامه مِن أنَّ أعلمَ الخلق بالله تَعَالَىٰ هُم الرسل الذين أرسلهم الله تَعَالَىٰ، فهم يُخبرون عن الله عَزَّ وَجَلَّ بعِلم، فأيُّ حديث تضمَّن اسمًا من أسماء الله أو صفةً مِن صفات الله؛ فأهل السنَّة والجماعة يثبتونه على القاعدة السابقة.

وهُنا مُهمَّاتٌ أنبِّه عليها:

المهمَّة الأولىٰ: لم يشترط الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السُّنَّة التي تُثبَت بها أسماءُ الله وصفاتُه، أكثر مِن كونها صحيحةً عن الرسول ﷺ، فهو لم يَشترط أن تكون

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، حديث رقم (٧٣٨٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استِحبَابِ خَفضِ الصَّوتِ بِالذِّكرِ، حديث رقم (٢٧٠٤)، عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، حديث رقم (٧٤٣٤)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فَضلِ صَلَاتَيِ الصُّبحِ وَالعَصرِ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَيهِمَا، حديث رقم (٦٣٣)، عن جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

متواترة، خلافًا لمَن يقول: لا تثبُت العقيدة إلا بمتواتر، وهذا الذي عليه أهلُ السنَّة والجماعة؛ فإنَّهم لا يشترطون في ثبوت العقيدة أن تثبُت بالتواتر؛ لأنهم يقولون: العلم لا ينحصر في المتواتر فقط، فإنَّ العلم كما يكون في المتواتر يكون في حديث الآحاد الذي تلقَّاه العلماء بالقبول، أو حفَّت بهِ قرائنُ كأن يُصحِّحه صاحبُ الصحيح أو أحدهما، أو صحَّحه أهلُ الاختصاص، حتىٰ لو حسَّنوه، فلا يشترطون أكثر من ثبوت الحديث وتلقِّيهِ بالقبول، فلا يشترطون أن يكون الحديث متواترًا حتىٰ يثبت ما تضمَّنهُ من الأسماء والصفات أو العقائد الأخرىٰ.

المهمَّة الثانية: أننا حينما نقول: إنهم لا يشترطون إلَّا الصحة؛ فنعني بالصحَّة: القبول، فلو كان الحديث حسنًا لغيره أو حسنًا لذاته، أو صحيحًا لذاته أو صحيحًا لغيره؛ فهو كلُّه سنَّة مقبولة تثبت بها العقيدة، والدليل أنَّ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في جملة الأحاديث حديثًا، قال عنه: «حسن»، وهو حديث: «عَجِبَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ».

نكتة: ابنُ تيمية عالم كبيرٌ، لمَّا يُورد حديثًا حسنًا مع أن فيه غُنيةً بالأحاديث الصحيحة، خاصَّة وأن المحلَّ محلُّ تمثيل للأحاديث التي تضمَّنت صفات الله جَلَّ وَعَلَا، لمَّا أورد الشيخ حديثًا وقال: «إسناده حسن»؛ يُريد أن يُنبِّهك إلىٰ هذا الأمر الثاني، وهو أنَّنا نقبل الحديث ولو كان حسنًا لذاته أو لغيره، ونُثبت به العقيدة.

إذن؛ المهمَّة الأولىٰ: أنَّنا لا نشترط في العقيدة أن يكون الحديث متواترًا، والمهمَّة الثانية: أنَّنا نقبل الحديث الذي هو في حيِّز القبول؛ سواء كان صحيحًا

لذاته، أو صحيحًا لغيره، أو حسنًا لذاته، أو حسنًا لغيره.

وفعلًا الحديث الذي قال عنه: «إسناده حسن»، هو عند النظر حسن لغيره، والإمام لَم يورد هذا الحديث -في نظري والله أعلم- إلا لبيان أنَّ العقيدة لا يُشترط في ثبوتها أن يكون الحديث صحيحًا في أعلىٰ درجات الصحَّة، فإنه أورد أحاديث من باب المتَّفق عليه؛ للإشارة أنه لا يُشترط التواتر، ثمَّ أورد حديثًا حسنًا؛ للإشارة أنه لا يُشترط أن يكون الحديث في أعلىٰ درجات الصحَّة.

المهمَّة الثالثة: أنَّ الإمام أراد أن يُبيِّن أن أسماء الله وصفاته لا يَلزم أن يُنصِّص عليها العلماء، فكلُّ ما دلَّ عليه الحديث الثابت من صفة أو اسم؛ فنحن نُثبته، سواء نقله العلماء أو لم ينقلوه، وفتح لنا الباب؛ لأننا قد نقول: ما كان في القرآن محصور، لكن ما كان في السنَّة فحصره صعب؛ لأن السنَّة لا يُحيط بها إلَّا نبيٌّ، فلا يُحيط بها عالم واحد، ومجموع السنَّة عند مجموع الأمَّة [1].

إذن المهمَّة الثالثة التي نبَّه عليها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ الأمر في الأحاديث أوسع، فنحن لا نمنع أن يوصف الله وأن يسمَّىٰ الله بما ورد في الحديث، بشرط

(١) والذي صنعه علماء الحديث مِن أجل حصر السنَّة أنهم جمعوا كُتب الزوائد، يعني الأحاديث الزائدة علىٰ الكتب الستَّة، فجعلوا الكتب الستَّة أو الصحيحين أصلًا ثم جمعوا الزائد عليها، فبعدما تجمع زوائد كلِّ الكتب تحصر عندك كلُّ الأحاديث، ثم لهم شرطٌ في الزوائد يتفاوت من عالم إلىٰ عالم، وأنفع هذه الشروط اشتراط الزائد في اللفظ، فقد يكون الحديث في البخاريِّ ومسلم، لكن فيه زيادة، فيُورده الجامع من أجل الزيادة، فهذا أنفع شيء في جمع وحصر المتون، وبعضهم اشترط الزيادة في السند، لكن الأنفع في حصر المتون هو تتبُّع زوائد الألفاظ.

أن يكون الحديث ثابتًا.

قوله: «فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ»: دليله قولُ الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، إذن السنَّة هي بيانٌ للقرآن، وبيانُها للقرآن علىٰ أنحاء:

النحو الأول: أن تكون موافقةً للقرآن، فهي مؤكِّدة لمَا جاء في القرآن.

النحو الثاني: أن تكون السنَّة مُخصِّصة لمَا جاء عمومًا في القرآن، أو مُقيِّدة لما جاء مطلقًا في القرآن، أو مُبيِّنة لما جاء مُجملًا في القرآن.

النحو الثالث: أن تكون السنَّة مؤسِّسةً لحُكم لم يأتِ في القرآن، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

ويقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

علىٰ هذا الأساس؛ كلُّ ما بيَّنه الرسول ﷺ في القرآن حُكمُه كحكم القرآن، والرسول ﷺ يقول: «**أُوتِيتُ القُرآنَ وَمِثلَهُ مَعَهُ**».

إذن ما جاء في السنَّة مثل القرآن في وجوب التزامه، والأخذ به، والعمل به، ومتابعته -عليه الصلاة والسلام-؛ ولذلك حذَّر الرسول ﷺ من رجل إذا جاءه الحديث قال هاتوا القرآن؛ قال ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبعَانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيكُم بِهَذَا القُرآنِ، فَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِن حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِن حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُم لَحمُ الحِمَارِ**

الأَهلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِن السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَن يَستَغنِيَ عَنهَا صَاحِبُهَا، وَمَن نَزَلَ بِقَومٍ فَعَلَيهِم أَن يَقرُوهُ، فَإِن لَم يَقرُوهُ فَلَهُ أَن يُعقِبَهُم بِمِثلِ قِرَاهُ». أخرجه أبو داود.

وأخرجه الترمذي أيضًا، ولفظه: «أَلَا هَل عَسَىٰ رَجُلٌ يَبلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ فَيَقُولُ: بَينَنَا وَبَينَكُم كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدنَا فِيهِ حَلَالًا استَحلَلنَاهُ، وَمَا وَجَدنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللهُ»(١).

قوله: «وتَدُلُّ عَلَيهِ، وتُعَبِّرُ عَنهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ رَبَّهُ ﷻ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهلُ المَعرِفَةِ بِالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ»: إذن هو لم يشترط في الحديث أكثر مِن التلقِّي بالقبول، يعني: أن يُحكم عليها بأنَّها أحاديث صحيحة مقبولة، وهذا الأمر واسع، فنحن لا نشترط أكثر من صحَّة الحديث، ومُرادنا بصحَّة الحديث ثبوتُه، سواءً كان ثابتًا صحيحًا لذاته، أو ثابتًا صحيحًا لغيره، أو ثابتًا حسنًا لذاته، أو ثابتًا حسنًا لغيره، هذا منهج

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، حديث رقم (٤٦٠٤)، وسنده صحيح. وأخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما نُهي عنه أن يقال عند حديث النبيِّ ﷺ، حديث رقم (٢٦٦٤)، وقال: «حسن غريب». والحديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٨/ ٤١٠-٤١١ تحت رقم ١٧١٧٤) بنحو لفظ أبي داود، وفي (٢٨/ ٤٢٩ تحت رقم ١٧١٩٤) بنحو لفظ الترمذي، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ، حديث رقم (١٢)، بنحو لفظ الترمذي. وهو من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألباني في «مختصر سنن ابن ماجه» (١/ ٧)، وكذا محقِّق «جامع الأصول» (١/ ٢٨١).

أهل الحديث والسنَّة، وهذه طريقتهم.

ولذلك تجدون كتب العقيدة القديمة المُوسَّعة قد تورد أحاديثَ وآثارًا بأسانيد ضعيفة، فيستغرب الإنسان ويقول: لِمَ؟

أقول لك: هذا الحديث جاء بأسانيد كثيرة، وقد تكون هذه الأسانيد الكثيرة لا يثبُت بها الحديث علىٰ طريقة أهل الحديث، وهنا لابدَّ أن تنتبه لأمر، وهو أنَّ طريقة أهل الحديث في الحكم بثُبوت الحديث هي مِن حيث الرواية، وإلَّا هناك طُرق يَثبُت بها الحديث بغير طريق الرواية، فقد ذكر ابنُ عبد البرِّ النمري في كتابَيه «التمهيد» و«الاستذكار» بعض الأحاديث، وقال: هذه الأحاديث تُغني شُهرتها وتداولُها بين العلماء عن النظر في أسانيدها[1]. فما بالك بحديث أجمعت عليه الأمَّة! فهذه أحاديث تَثبُت بغير طريق الرواية، ويُخطئ مَن يظنُّ أن ثُبوت الأحاديث لا يكون إلَّا عن طريق الرواية فقط، الأمر الذي تختلف فيه طريق الرواية عَن غيرها من الطرق، أن الرواية يثبُت بها اللفظ، لكن الطرق الأخرىٰ يثبت بها المعنىٰ، وما دام المعنىٰ صحيحًا ولو جاء بأسانيد ضعيفة؛ فهم يوردونه في كتب العقيدة، علىٰ أساس أنه ثابت، لا بطريق الرواية، ولكن بطريق التلقِّي بالقبول، وشهرته بين العلماء.

وهذه مسألة غامضة قليلًا، لكن مَن أراد التوسُّع سيجدها -إن شاء الله- مبحوثةً قد كتب فيها أهلُ العلم ونبَّهوا عليها.

---

(١) انظر: «التمهيد» (١١/ ٨٤) و(١٦/ ٢٢١) و(٢٤/ ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٣)، و«الاستذكار» (١/ ١٥٩)، (٧/ ٢٨٩).

وفي هذا الفصل أورد الإمام جُملةً من الأحاديث، قال: «فَمِن ذَلِكَ: مِثلُ قَولِهِ ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا كُلَّ لَيلَةٍ حينَ يَبقَىٰ ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَن يَدعُونِي فَأَستَجِيبَ لَهُ، مَن يَسأَلُنِي فَأُعطِيَهُ، مَن يَستَغفِرُنِي فَأَغفِرَ لَهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

أقول: هذا حديث النزول، وابتدأ شيخ الإسلام بذكره اهتمامًا به؛ لكثرة النزاع فيما تضمَّنه من صفة نزول الله ﷻ.

والنزول في لغة العرب: هو الهوي من علوٍّ إلىٰ سُفل[1]، فالله يَنزل كما شاء، تصديقًا بخبر نبيِّه ﷺ، ونصفه بالنزول، ونُثبت له هذه الصفة علىٰ الوجه اللائق بجلاله، بلا كيف، ولا يقتضي نزوله تلك اللَّوازم التي تَلزم من نزول المخلوقين، فلا يَلزم من نزوله كلَّ ليلة خلو العرش منه، ولا يَلزم من نزوله ﷻ كون شيء من خلقه فوقَه، ولا يَلزم من نزوله ﷻ اتِّصافه بصفات المخلوقين؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فالزم هذه القاعدة تُرِحْكَ، وقل: أنا أُثبت النزول صفةً لله ﷻ؛ كما وصفه بها رسولُه ﷺ، وأنه ينزل في كلِّ ليلة، ولا يَلزم من هذا النزول هذه اللوازم التي تَلزم من نزول المخلوقين؛ لأنِّي أُثبت له النزول ﷻ علىٰ الوجه اللائق بجلاله، بلا تشبيه، ولا تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولنمثِّل بصفة البصر والسمع؛ فهي عند المخلوق فيها نقص، لكن نحن نُثبت أنَّ الله سميع بصير، إثباتًا علىٰ

(١) انظر: «مقاييس اللُّغة» (٥/ ٤١٧).

وجه الكمال، وننفي هذا النقص الموجود عند المخلوقين، فنقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فنُثبت الصفة على الوجه اللائق ونقول: هي صفة كمال، وكذلك نقول عن النزول، ومعنى النزول لغةً: الهُويُّ من علوٍّ إلى سُفل، فالله ينزل إلى سماء الدنيا حين يبقي ثلث الليل الآخر على ما جاء في الحديث، على الوصف اللَّائق بجلاله.

فإن قيل: إذا وصفنا الله بهذه الصفة فإن الليل في الكرة الأرضية ينتقل من جهة إلى جهة أخرى!

نقول: أليس انتقال الليل في أربع وعشرين ساعة؟

يقول: نعم.

نقول: يا أخي، هذه الأربع والعشرون ساعة مقدار يوم عندنا، وإن يومًا عند ربِّك كألف سنة ممَّا تعدُّون، فهذا اللازم يلزم المخلوقين، أمَّا الله تعالى فلا يلزمه ما يلزم المخلوق، إذن الله خارج عن هذه المقاييس، فأَثبت لله نزولًا بدون هذه اللوازم التي تَلزم من نزول المخلوقين، فإنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وقد أفرد شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة بكتاب كبير سمَّاه «شرح حديث النزول».

ونقول في هذه الأحاديث الَّتي ذكرها الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ذكرنا في الآيات

التي أوردها: القول فيها علىٰ حسب القاعدة السابقة؛ نُثبت ما تضمَّنته هذه الأحاديث مِن صفات الإثبات، وننفي عن الله ما تضمَّنته من صفات النفي، علىٰ الوجه اللَّائق بجلاله، ونقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فهي صفاتٌ لله ﷻ بلا تمثيل ولا تحريف، ولا تعطيل ولا تكييف، نقول: بلا تمثيل ولا تكييف؛ لأن التشبيه داخل في التمثيل، والتعطيل أيضًا داخل فيه.

❊ ❊ ❊

إِلَىٰ أَمثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ ﷺ عَن رَبِّهِ بِمَا يُخبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الفِرقَةَ النَّاجِيَةَ أَهلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤمِنُونَ بِمَا أَخبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ وَلَا تَمثِيلٍ؛ بَل هُمُ الوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ فِي الأُمَمِ؛ فَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ ﷻ بَينَ أَهلِ التَّعطِيلِ الجَهمِيَّةِ، وَأَهلِ التَّمثِيلِ المُشَبِّهَةِ؛ وَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ أَفعَالِ اللهِ بَينَ الجَبرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِم.

وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَينَ المُرجِئَةِ والوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِم.

وَفِي بَابِ أَسمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعتَزِلَةِ، وَبَينَ المُرجِئَةِ وَالجَهمِيَّةِ.

وَفِي أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَ الخَوَارِجِ(١).

الشرح

قوله: «فَهُم وَسَطٌ»: يعني: أهلَ السنَّة والجماعة، الفرقة الناجية المنصورة، والوسط؛ أي: الخيار العدول، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة:١٤٣]؛ أي: خيارًا عُدولًا، وهم في هذه المسائل أيضًا وسطٌ بين طرفين، بين المتشدِّد وبين المتساهل في باب الأسماء والصفات، وانظروا مقدار الكلام الذي تكلَّم فيه الشيخ عن هذه المسألة؛ وذلك لأن الصراع في عصره كان

(١) عندي أن هذا المقطع من كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان الأفضل أن يُؤخَّر بعد ذلك، ولكنه لعلَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّمه هنا؛ ليُهيِّئك لهذه المسائل التي ستأتي.

مُحتدمًا في هذه القضية.

يقول: «فَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ ﷻ بَينَ أهلِ التَّعطِيلِ الجَهمِيَّةِ»؛ وهم أتباع الجهم بن صفوان، الذي أخذ عن الجعد بن درهم، والجعد بن درهم أخذ عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله ﷺ[1]، فهم سلسلة ضلال وسلسلة باطل، فهذا الجهم بن صفوان عطَّل صفات الله، فسلب عنها معانيها، فيقول: سميعٌ بلا سمع، بصيرٌ بلا بصر، رحيمٌ بلا رحمة؛ لأنه زعم أن إثبات هذه الصفات إثبات لمشابهة الله للمخلوقين، فالتنزيه عنده هو التعطيل،؛ لأنه أراد أن يُنزِّه، فسلب عن الله ﷻ صفاته، والذي يقول: إن الله لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا يسار، ولا أمام، ولا خلف؛ هذا مُعطِّل جهميٌّ، كما قال محمود سبكتكين: مَن أراد أن يصف العدم لا يستطيع أن يصفه بأبلغ مِن ذلك[2].

ولذلك قال بعض السلف: المُمثِّل والمُجسِّم يَعبُد صنمًا، والمُعطِّلُ يعبُدُ عَدَمًا[3].

فحقيقة كلامهم نفيُ وجود الله ﷻ؛ لأن كلَّ شيء موجود لابدَّ أن تكون له

(١) انظر: «تاريخ دمشق» (٧٢/ ٩٩)، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٦/ ١٤٩- تدمري)، و«مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٥/ ٢٠)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ١٩٩- هجر).

(٢) انظر: «التسعينية» (٢/ ٧١٠-٧١١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٧)، و«درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (٦/ ٢٥٣)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٢١-٢٢).

(٣) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٥/ ١٩٦، ٢٦١)، «الكافية الشافية في عقيدة الفرقة الناجية – بشرح ابن عيسىٰ» لابن القيم (١/ ٢٨- المكتب الإسلامي)، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/ ١٤٨- الدخيل).

صفات، فإذا نفيت عنه كلَّ صفة لم يعُد موجودًا، وصار هو والعدم سواء، فالجهمية في حقيقة قولهم يعبدون عَدَمًا، ولذلك سمَّوهم مُعطِّلة.

قوله: «وَأَهلِ التَّمثِيلِ المُشَبِّهَةِ»: الذين يُشبِّهون الله ويُمثِّلونه، حتَّىٰ إن الشهرستاني ذكر في كتابه «الملل والنحل» عن بعض هؤلاء المشبِّهَة، أنه قال: «أعفوني عن الفرج واللحية، واسألوني عمَّا وراء ذلك!!»[1]؛ يعني: هو يُمثِّل في كلِّ شيء، فحقيقة قول هؤلاء المشبِّهة أنَّهم يعبدون صنمًا، والله تعالىٰ يُخبرنا في كتابه عن نفسه، فيقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فأهل السنَّة والجماعة الفرقة الناجية المنصورة وسطٌ بين الجهمية المُعطِّلة والمشبِّهة المُمثِّلة، فهم يثبتون معاني الصفات ويفوِّضون الكيف؛ يثبتون معاني وحقائق الأسماء والصفات بحسب اللسان العربي.

مثلًا يقولون: استوىٰ معناه: علا وارتفع، ويقولون: النزول هو الهُوي من علوٍّ إلىٰ سُفل، ويقولون: السمع هو ما يسمع به المسموعات، قالوا: لأننا إذا لم نُثبت المعاني فلازم ذلك أن الله خاطبنا في كتابه بما لا معنىٰ له.

فإن قالوا: كيف تتهموننا أنَّنا نقول: إن الله يخاطبنا بما لا معنىٰ له؟

نقول: هذا كلامكم؛ فإنكم لمَّا تقولون إن هذه الصفة لا يدرىٰ ما معناها

(١) «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١٠٥ و١٨٧- الحلبي)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ١٤٥)، و«منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٢/ ٥٠٠). وانظر: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ١٢٨، ١٦٦- زرزور)، و«الفرق بين الفرق» (ص٢١٦- الآفاق الجديدة)، و«التبصير في الدين» لأبي المظفَّر الإسفراييني (ص١٢٠- عالم الكتب).

وما أريد بها؛ فلازم ذلك أن الله خاطبنا بكلام لا معنىٰ له.

فإن قالوا: إن العرب لا يفهمون ذلك! نقول: إذن الله خاطب العرب بما لا يفهمون، فكيف قامت الحجَّة عليهم بما لا يفهمون؟! ثمَّ هم -أعني: العرب- لِمَ لم يحتجُّوا علىٰ رسول الله ﷺ بأن هذا الكلام الذي تتحدَّانا به غير مفهوم؟! وإنما تقوم الحجَّة بكونهم فهموا هذا الكلام بحسَب اللسان العربي.

وعليه؛ فإن أهل السنَّة وسطٌ بين الجهمية والمشبِّهة؛ فلا يُعطِّلون، ولا يشبِّهون، ولا يمثِّلون، ولا يُكيِّفُون، إنَّما يُفوِّضون في الكيف، فيقولون: هو سميع بصير، أمَّا كيف سمعُه، وكيف بصرُه، فلا نعلمه، ونكِل علمه إلىٰ الله، كمقولة أمِّ سلمة ومالك وغيرهما: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»[1]. فنُثبت المعنىٰ ونفوِّض في الكيفية، فهم وسط في باب الأسماء والصفات بين الجهمية المُعطِّلة وأهل التمثيل.

قوله: «وَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ أَفعَالِ اللهِ بَينَ الجَبرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِم»: لأن أهل السنَّة يعتقدون أن الله هو خالق أفعال العباد جميعها، وأنهم هم الفاعلون لها باختيارهم وقدرتهم، بخلاف الجبرية الذين يسلبون عن العبد الاختيار، ويضيفون فِعلَه إلىٰ الرَّبِّ -جلَّ وعزَّ-، وبخلاف القدرية الذين قالوا: إن الله لا يخلق فعل العبد، إنما يخلقه العبدُ نفسُه، فجعلوا مع الله خالقًا غيره، فأهل السنَّة وسطٌ في أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهما.

---

(١) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٥/ ٣٦٥).

فالجبرية يقولون: العباد مجبورون علىٰ أفعالهم، وبالتالي كيف يُكلَّفون، وكيف يُحاسبون؟! فهذا مِن تناقض الجبرية.

والقدرية يقولون: الخلق هم الذين يخلقون أفعالهم، فسلبوا عن الله المشيئة والإرادة، وجوَّزوا أن يُفعل في مُلكه ما لا يُريده.

أمَّا أهل السنَّة والجماعة: فأثبتوا لله علمًا سابقًا أزليًّا بأعمال الخلق كلِّهم، وأنَّ الله كتب كتابًا عنده قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، كتب فيه مقادير الخلائق وما يفعلونه إلىٰ أن تقوم الساعة، كما جاء في الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكتُب، فَجَرَىٰ فِي تِلكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ»[1]. وكان ذلك قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة.

وأنَّ الله ﷻ قد أراد للعباد أن يفعلوا أفعالهم، وأنه هو الذي خلقها، كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، فأثبت للخلق مشيئة واختيارًا.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد:١٠].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٧٨-٣٧٩، رقم ٢٢٧٠٥)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم (٤٧٠٠)، والترمذي في أبواب القدر، باب (١٦)، حديث رقم (٢١٥٥)، وفي أبواب التفسير، باب قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم:١]، حديث رقم (٣٣١٩)، وقال: «حسن صحيح»، وابنُ أبي عاصم في «السنَّة» (١٠٢) و(١٠٤) و(١٠٥)، وغيرهم، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، بألفاظ متقاربةٍ. وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة في تخريج السنَّة» (١/ ٤٨-٤٩).

فالإنسان له مشيئة واختيار؛ يختار الحق أو الباطل، وهذا يحسُّه كلُّ إنسان في نفسه، ولكنَّه في مشيئته واختياره لا يخرج عن علم الله السابق، وعن إرادة الله السابقة.

فأهل السنَّة وسطٌ بين الذين يقولون بالجبر والذين يقولون ينفون القدر، ويقولون بأن الإنسان يخلق فعل نفسه.

قوله: «وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَينَ المُرجِئَةِ والوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغيرِهِم»: باب الوعيد هذا باب مهمٌّ، وأغلب الناس الذين يضلُّون اليوم -مَن يُلقَّب بالفئة الضالَّة- سببُ ضلالهم أنهم لم يضبطوا هذا الباب، ونصُّ الوعيد: هو كلُّ نصٍّ في القرآن أو السنَّة تضمَّن عقوبةً أو حكمًا بالنَّار، لمن أتىٰ اعتقادًا أو قولًا أو فعلًا.

والقاعدة في نصوص الوعيد عند أهل السنَّة والجماعة: أنَّ ما ورد في هذه النصوص أن ذلك الوعيد هو عذابهم إذا شاء الله أن يُعذِّبهم، وإلَّا هم في مشيئة الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذه القاعدة في كلِّ ما ورد فيه نصٌّ بالوعيد لأهله بالنَّار أو نفي الإيمان، أو تسميته كافرًا.

مثلًا: حديث الرسول ﷺ: «**لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب النهبىٰ بغير إذن صاحبه، حديث رقم (٢٤٧٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان بالمعاصي، حديث رقم (٥٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وحديث: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ»، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: «شَرُّهُ»(١).

وحديث: «إِذَا التَقَىٰ المُسلِمَانِ بِسَيفَيهِمَا؛ فَالقَاتِلُ، وَالمَقتُولُ فِي النَّارِ»(٢).

ومثل حديث: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ؛ فَقَد بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»(٣).

فهذه عقوبة، ومعناه أن يعاقب عقوبة الكفار، وعقوبتهم التخليد في النار، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

فهذه النصوص تضمَّنت عقوبات بالنار علىٰ ذنوب، والحكم فيها إذا وقعت من أهل التوحيد أن نقول: هذه عقوبتهم إذا أراد الله أن يُعاقبهم، وإلَّا هم في مشيئة الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

---

(١) أخرجه أحمد (١٣/ ٢٦١ تحت رقم ٧٨٧٨) و(١٤/ ١٥٣ تحت رقم ٨٤٣٢) و(٢٦/ ٢٩٢-٢٩٣ تحت رقم ١٦٣٧٢)، والحاكم (١/ ٥٣، رقم ٢١)، عن أبي هريرة ﷺ. وصححه علىٰ شرط الشيخين. وقد خرَّجه البخاري في «صحيحه» في كتاب الأدب، باب إِثْمِ مَن لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ، حديث رقم (٦٠١٦)، من حديث أبي شريح الخزاعي ﷺ، مختصرًا. وذكر من أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ، ولم يسق لفظه. انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٤٣-٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]، حديث رقم (٣١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم (٢٨٨٨)، عن أبي بكرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، حديث رقم (٦١٠٣)، عن أبي هريرة ﷺ.

وأهل السنَّة والجماعة في باب الوعيد بين المرجئة والوعيدية.

فالمرجئة يقولون: إن هؤلاء أصحاب الوعيد في الجنَّة ابتداءً، فأسقطوا عنهم الوعيد بالكلِّية.

والوعيدية يقولون: لابدَّ من إنفاذ الوعيد، وبالتالي فأصحاب المعاصي الكبائر عند الوعيدية كفَّار بالله، هذه نتيجة هذا القول ومؤدَّاه!

والوعيدية مثل المعتزلة والخوارج، والمعتزلة عندهم خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين.

فإنفاذ الوعيد هو هذا؛ أنَّهم يرون أن كلَّ وعيد جاء به النصُّ وجب عقلًا إنفاذه في حقِّ كلِّ من تعلَّق به الوعيد، ولا يجوز أن يتخلَّف أبدًا؛ يعني: أن أصحاب الوعيد عندهم لا محالة معذَّبون في النار خالدين فيها أبدًا، ولا يدخلون الجنَّة.

لكن أهل السنَّة توسَّطوا؛ قالوا: لا نقول إنه لا يعذَّب مثلما قالت المرجئة، ولا نقول إن الوعيد منفَّذ فيهم؛ وبالتالي هم في النار، إنما نقول: إذا جاءوا بالتوحيد هم في مشيئة الله، إن شاء عذَّبهم، ثمَّ مآلهم إلىٰ الجنَّة، وإن شاء غفر لهم ابتداءً، فهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء.

وعدم فَهم هذا الباب هو سببُ ضلال الكثير من الناس اليوم؛ لأنهم نظروا إلىٰ آيات وأحاديث لم يفهموها علىٰ وجهها الصحيح، فنزَّلوها علىٰ غير بابها،

وحكموا بظواهرها، ولم ينتبهوا لقاعدة أهل السنَّة في نصوص الوعيد.

قوله: «وَفِي بَابِ أَسمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعتزِلَةِ، وَبَينَ المُرجِئَةِ وَالجَهمِيَّةِ»: هذا بابٌ عظيم، اسمُه: «باب الأسماء والأحكام»، وهو متعلِّق بالأبواب السابقة، فالأسماء مثل: اسم الإيمان، واسم الكفر، واسم الشرك، واسم الإسلام، واسم النفاق، واسم المعصية، واسم البدعة، والفسق في المعصية، والفسق في الاعتقاد، وعندنا المسلم كامل الإيمان، والمسلم ناقص الإيمان، وأصحاب المعصية الكبيرة، وأصحاب المعصية الصغيرة، وأصحاب اللَّمم، وأصحاب البدع.

فهذه الأسماء كلُّ اسم له صفةٌ وله حكم، فأهل السنَّة والجماعة في هذا الباب وسط، فهم يُثبتون الكفر بأنواعه الأربعة؛ بالقول أو الفعل أو الاعتقاد أو الشكِّ؛ سواء كان كفرًا بالتكذيب، أو كان كُفرًا بالنفاق، أو كان كُفرًا بالشكِّ، أو كان كُفرًا بالإعراض والتولِّي، فيُثبتون الكُفر بأنواعه، ولا يحكمون علىٰ الشخص بأنه كافر بعينه إلَّا بعد قيام الحجَّة؛ بثبوت الشروط وانتفاء الموانع، ويُفرِّقون بين كفر النوع وكُفر العين، فيقولون: من قال: القرآن مخلوق؛ فقد كفر، لكن لا يحكمون علىٰ المُعيَّن إذا قال هذا القول، إلا بعد قيام الحُجَّة، ويحكمون علىٰ البدعة أنها بدعة كبيرة أو بدعة صغيرة بحسَبها، وقد يقولون: هذه بدعة مُكفِّرة، وهذه بدعة مُفسِّقة، ولا يحكمون علىٰ صاحب البدعة بحُكم بدعته إلَّا بعد قيام الحُجَّة؛ وهي ثُبوت الشروط وانتفاء الموانع، بخلاف غيرهم من أهل البدع؛ سواء كانوا من الحرورية الخوارج، أو المرجئة والجهمية.

وكلُّ هؤلاء سيأتي -إن شاء الله- ذكر مقولاتهم في تعريف الإيمان، وفي تعريف الكفر، فلهؤلاء تعاريفهم، ولأهل السنَّة تعريفهم.

وكما أسلفت هذا باب الأسماء والأحكام بابٌ عظيمٌ مهمٌّ، فيه دقَّة، وهو فيصلُ تفرقة بين فِرق الإسلام.

قوله: «وَفِي أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَ الخَوَارِجِ».

أقول: الرافضة هم الذين رفضوا صحابة رسول الله ﷺ وطعنوا فيهم، إلا البعض منهم ممَّن كان مع آل البيت بحسَب زعمهم، فهم يطعنون في الصحابة ويُفسِّقونهم، ولا يقبلون منهم حديثًا ولا رواية.

وأمَّا الخوارج فهم يطعنون في الصحابة بعد الفتنة جُملةً وتفصيلًا، ولا يخصُّون منهم أحدًا[1]، ولم يُوافق الخوارج أحدٌ من الصحابة فيما كانوا عليه.

فأهل السنَّة والجماعة وسطٌ بين هؤلاء وهؤلاء، إذ يرون أن صحابة رسول الله ﷺ هم خير الخلق بعد الأنبياء والرسل، وأنَّ الله اصطفاهم لصحبة نبيِّه ﷺ، ويعملون

---

(١) جاء في «مقالات الإسلاميِّين- تحقيق زرزور» (١/ ١٠٩): «والخوارج بأسرها يُثبتون إمامة أبي بكر وعمر، ويُنكرون إمامة عثمان -رضوان الله عليهم- في وقت الأحداث التي نقم عليه من أجلها، ويقولون بإمامة عليٍّ قبل أن يحكِّم، ويُنكرون إمامتَه لمَّا أجاب إلىٰ التحكيم، ويكفِّرون معاوية وعمرو بنَ العاص وأبا موسىٰ الأشعري، ويرون أن الإمامة في قريش وغيرهم إذا كان القائم بها مستحقًّا لذلك، ولا يرون إمامة الجائر. وحكىٰ زرقان عن النجدات أنهم يقولون أنهم لا يحتاجون إلىٰ إمام وإنما عليهم أن يعلموا كتاب الله سبحانه فيما بينهم». اهـ وكذا نقل هذا عنهم ابنُ حزم في «الفصل في الملل والنحل- الخانجي» (٢/ ٩٠).

بأمر رسول الله ﷺ فيما جرىٰ وحدث بين الصحابة، وهو قوله ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ أَصحَابِي فَأَمسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمسِكُوا»[1].

* * *

(١) أخرجه الطبراني (٢/ ٩٦، رقم ١٤٢٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وله شاهدان عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما. وآخر عن طاوس مرسلًا. قال الألبانيُّ رحمه الله في «الصحيحة» (١/ ٧٥): «وكلها ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشدُّ بعضًا». قلت: فيرتقي إلىٰ الحسن لغيره.

فَصلٌ: وَقَد دَخَلَ فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا أَخبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَن رَسُولِهِ، وَأَجمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِن أَنَّهُ سُبحَانَهُ فَوقَ سَمَوَاتِهِ، عَلَىٰ عَرشِهِ، عَلِيٌّ عَلَىٰ خَلقِهِ، وَهُوَ سُبحَانَهُ مَعَهُم أَينَمَا كَانُوا، يَعلَمُ مَا هُم عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلِكَ فِي قَولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيسَ مَعنَىٰ قَولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُختَلِطٌ بِالخَلقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيهِ الخَلقَ، بَلِ القَمَرُ آيَةٌ مِن آيَاتِ اللهِ مِن أَصغَرِ مَخلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ وَغَيرِ المُسَافِرِ أَينَمَا كَانَ. وَهُوَ سُبحَانَهُ فَوقَ العَرشِ رَقِيبٌ عَلَىٰ خَلقِهِ، مُهَيمِنٌ عَلَيهِم، مُطَّلِعٌ عَلَيهِم، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِن مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ -مِن أَنَّهُ فَوقَ العَرشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا- حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، لَا يَحتَاجُ إِلَىٰ تَحرِيفٍ، وَلَكِن يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الكَاذِبَةِ؛ مِثلِ أَن يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَولِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَو تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجمَاعِ أَهلِ العِلمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَد وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ، وَهُوَ الَّذِي يُمسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ أَن تَزُولَا، وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَىٰ الأَرضِ إِلَّا بِإِذنِهِ، وَمِن آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرضُ بِأَمرِهِ.

الشرح

بعد أن قرّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ القاعدة في باب الأسماء والصفات،

وبيَّن أنها توقيفية، ومثَّل علىٰ ذلك بآيات وأحاديث وردت بأسماء وصفات لله تعالىٰ، عطف علىٰ ذلك بتقرير صفة من صفات الله ﷻ؛ وهي صفة الفوقية؛ أي: أنه ﷻ مستوٍ علىٰ عرشه فوق سمواته، وهذا من باب ذكر الخاصِّ بعد العام، وقد كان يكفيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما تقدَّم من تقرير القاعدة في باب الأسماء والصفات، ولكنَّه خصَّ هذه الصفة بالذكر؛ لأن من الأقوال التي اشتهرت في عصره القول بالحلول وبوحدة الوجود، إذ كان كثيرمن النَّاس في زمنه يرون أنَّ ابن الفارض (ت٦٣٢هـ)، والحلَّاج (ت٣٠٩هـ)، وابن عربي الطَّائي (ت٦٣٨هـ)، وهم من القائلين بالحلول والوحدة؛ أنهم من الأولياء، واشتهر هذا القول عند الناس شُهرة كبيرة في عصره، فاحتاج أن يخصَّه من دون الصفات الأخرىٰ بالذكر والتنصيص والبيان.

فنقل أنه ممَّا ثبت لله ﷻ من الصفات صفة الفوقية، وأن هذه الصفة ثابتة بالقرآن والسنَّة المتواترة والإجماع، والذي يدلُّكم أنَّ هذه الصفة لها خصوصيَّة بسبب شُهرة المخالف فيها في زمنه؛ أن تلميذه الذهبيَّ (ت٧٤٩هـ) أفردها بمجلَّد، وهو كتاب «العلو للعليِّ الغفَّار»، وأفرد شيخ الإسلام هذه الصفة بالكلام في كتابه «شرح حديث النزول»، حيث تضمَّن تقرير صفة الفوقية، وتقرير صفة النزول ونفي الإشكال، والرد علىٰ الحلولية والوجودية الاتحادية.

وهذا يدلُّ علىٰ أن هذه المسألة وإن كانت من مسائل الأسماء والصفات التي تدخل فيما تقدَّم من كلامه، إلا أنها من المسائل التي احتاج إلىٰ أن يُبرزها ويخصَّها بمزيدٍ من البيان والتوضيح؛ ليكون في ذلك إزالة للشبهة التي قد

تكون عند بعض الناس، ولإقامة الحجَّة بثبوت هذه الصفة، فهو يُقرِّر أنَّ من صفات الله ﷻ صفة الفوقية؛ أي: أنه سبحانه مستوٍ علىٰ عرشه فوق سمواته، وأنه لا يحلُّ، ولا يدخل في أيِّ شيء، بل الله مُنفصل عن خلقه ﷻ، فقول الوجودية الاتحادية قولٌ باطل يُنافي هذا الإجماع، وبسبب مُخالفة هذا القول للأدلَّة الواضحة من القرآن والسنَّة والإجماع، وتواتر القول بهذه الصفة عند العلماء، اتَّفق علماء أهل السنَّة علىٰ أنَّ القول بالحلول ووحدة الوجود قول كفريٌّ مُخرج من الملَّة.

وأوَّل شُبهة يمكن أن تنطلي علىٰ بعض النَّاس: التصريح بالمعية في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤]، فبيَّن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المعيَّة هنا هي المعيَّة بالعلم، والمعيَّة عامَّة وخاصَّة؛ فالخاصَّة معناها الحفظ والرعاية لأهل الإيمان، والعامَّة لجميع الخلق؛ بربوبيَّته ﷻ، فالله فوق عرشه، وعرشُهُ فوق سمواته، وهو ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

وتقول السيِّدة عائشة رضي الله عنها: «الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمعُهُ الأَصوَاتَ، لَقَد جَاءَتِ المُجَادِلَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ البَيتِ، تَشكُو زَوجَهَا، وَمَا أَسمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، معلَّقًا، بصيغة الجزم. ووصله أحمد (٤٠/٢٢٨ تحت رقم ٢٤١٩٥)، والنسائي في كتاب الطلاق، =

فالله معنا بعلمه، ولا يَلزم من كونه مستويًا علىٰ عرشه أن يخفىٰ أو أن يغيب عليه أمر الخلق، أو ألا يعلم ما يجري في الأرض، وضرب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالًا لذلك بالقمر، وهو مخلوق من مخلوقات الله موضوع في السماء الدنيا، فكلُّ أهل الأرض إذا جاء الليل يُشاهدون القمر، وكلٌّ واحد يمكنه أن يقول: سهرتُ مع القمر، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

ولذلك نحن نقول: القاعدة في هذا الباب: أنَّ هذه الصفات تُثبَت لله تَعَالَىٰ علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله، بلا تشبيه، ولا تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، كما أثبتَّ لله ذاتًا تختلف عن الذوات؛ فأثبت لله صفاتٍ تختلف عن الصفات، ولا تَقِس الله بمخلوقاته، فالنقص الذي يعتري الصفة الموجودة عند المخلوق، الله تَعَالَىٰ متنزِّه ومتقدِّس عنها تَعَالَىٰ.

الشبهة الثانية -التي قد تطرأ علىٰ قلوب بعض الناس-: لمَّا يقرءون قول الله جَلَّ في القرآن: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، يعني: أأمنتم الله الذي في السماء..! فهل معنىٰ ذلك أن السماء محتويةٌ لله تَعَالَىٰ، وأن الله جَلَّ داخل السماء؟!

الجواب: لا، فإن المراد بقوله: في السماء؛ أي: في العلوِّ، وفي اللُّغة العربية:

=

باب الظهار، حديث رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب الرد علىٰ الجهمية، حديث رقم (١٨٨). وفي كتاب الطلاق، باب الظهار، حديث رقم (٢٠٦٣)، والحاكم (٢/ ٥٢٣ رقم ٣٧٩١) وقال: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي. وقال الألباني في «الإرواء» (٧/ ١٧٥ تحت رقم ٢٠٨٧): «هو كما قالا».

كلُّ ما علاك فهو سماؤك، وكلُّ ما سفلك فهو أرضك(١)، فسماؤنا ونحن في المسجد السقف، وسماؤنا ونحن تحت المظلة: المظلَّة، وأرضنا إذا كنَّا في المسجد أرضُ المسجد، فإذا خرجنا كانت أرضنا أرض الشارع، فقول الله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في العلوِّ المطلق، وليست السماء المخلوقة، فليست هذا السماء ظرفًا له، ولذلك لما سأل النبيُّ ﷺ الجارية، فقال لها: «أَينَ اللهُ»؟ فَقَالَت: فِي السَّمَاءِ، ثم قَالَ: «مَن أَنَا»؟ قالت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ»(٢).

فقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: مَن هو في جهة العلوِّ المطلق، مستوٍ علىٰ عرشه فوق سمواته، هذا ما يتعلَّق بهذه الصفة.

والله ﷻ جمع بين إثبات علوِّه علىٰ خلقه ومعيَّته معهم في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد:٤].

فالله ﷻ في هذه الآية بيَّن أنه حينما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾، إنما أراد ﷻ أي:

---

(١) انظر: «أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص٨٥- الرسالة)، و«فقه اللغة» للثعالبي (ص ٢٥- إحياء التراث العربي)، و«الصحاح» للجوهري (٣/ ١٠٦٤) و(٦/ ٢٣٨٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٨- الكتب العلمية)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢١٦- الكتب المصرية)، و«بدائع الفوائد» لابن القيم (١/ ١١٤- الكتاب العربي).

(٢) سبق تخريجه.

بعلمه، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فذكر المعيَّة بعد أن ذكر ما يُفسِّرها؛ مِن أنَّ المراد بها العلم بأنَّه يعلم ما في الأرض وما في السماء.

* * *

فَصـــلٌ

وَقَد دَخَلَ فِي ذَلِكَ: الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلِكَ فِي قَولِهِ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦]. الآيَةَ.

وَقَولِهِ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِن عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١).

وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن قُربِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِن عُلُوِّهِ وَفَوقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

الشرح

أقول: الشبهة الثالثة -التي قد تطرأ في النفوس-: أنه كيف يكون الله عليًّا مستويًا فوق عرشه فوق سمواته وهو قريب منَّا إذا دعوناه، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦]؟!

أقول: لا منافاة، فالله مستوٍ علىٰ عرشه فوق سمواته، وقريبٌ منَّا بعلمه وإجابته ورعايته لأهل الإيمان خاصَّة، سريع في إجابة دعوتهم، يعلم الله تبارك وتعالى ما يجول في النفس وما يخطُرُ فيها، ويسمع دعاء الداعي حتىٰ المناجاة الخفيَّة، ولا يخفَىٰ عليه شيء، وهذا تفهمه إذا علمت أنَّ الله في صفاته مُباينٌ لمخلوقاته

(١) سبق تخريجه.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؛ فإذا فهمت أنَّ الله في علوِّه ليس كالخلق، وفي قُربه ليس كالخلق، أمكنك أن تعلم أن الله تَعَالَىٰ قريبٌ في علوِّه وعالٍ مع قربه تَعَالَىٰ.

وأمَّا ما ورد من إطلاق بعض أهل العلم من قوله: إن الله تَعَالَىٰ معنا بذاته أو قريبٌ بذاته؛ فهو يُريد القرب بمعنىٰ العلم، لا بمعنىٰ الاتحاد والحلول، فقوله: «بذاته» كقولك: «قريبٌ حقيقة»؛ أي: أنا أُثبت لله قُربه من الداعي إذا ما دعاه، قُربًا بعلمه، وقُربًا علىٰ الحقيقة، يسمع دعاءه ويُعطيه سؤله، ولمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصوَاتَهُم بِالذِّكرِ؛ قال لهم النبيُّ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اربَعُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُم؛ فَإِنَّكُم لَا تَدعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا. إِنَّ الَّذِي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِن عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١).

فالله جَلَّ أقرب إليك من عنق دابَّتك التي أنت راكبٌ علىٰ ظهرها؛ لأنه يعلم أمرك وسرَّك ويعلم حالك وشأنك، ويسمع دعاءك له ومناجاتك إيَّاه، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، وإذا كان الله جَلَّ فوق عرشه فوق سبع سمواته قد سمع كلام خولة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وهي تشتكي إلىٰ الله وتُجادل في أمر زوجها، وعائشة في الغرفة التي بجانبها لم تسمع ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة:١]؛ فكيف يخفىٰ عليه تَعَالَىٰ دعاؤك ومناجاتك؟! فلابد أن تعتقد أن الله مع كونه مستويًا علىٰ عرشه فوق سمواته، أنه يعلم بمناجاتك وبكلامك، وبكل ما يدور في نفسك، لا تخفىٰ عليه

---

(١) سبق تخريجه.

خافية؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة:٢٨٤].

فالله يعلم كلَّ ما يجول في نفسك، حتىٰ الخواطر يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولن يُحاسبك علىٰ الخاطرة إذا مرَّت بقلبك، إلَّا إذا عملت أو تكلَّمت.

قوله: «وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن قُربِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِن عُلُوِّهِ وَفَوقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ»: النعوت هي الصفات، وبعضُهم يخصُّها بالصفات الجميلة، فذِكرُ النَّعت هنا يعني بمعنىٰ الصفة الجميلة اللَّائقة بجلاله سبحانه.

قوله: «وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ»: إلىٰ هنا ينتهي كلام المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة العلُوِّ وما يتعلَّق بها، وقد أطال فيها، وعقد لها فصلَين، وذلك ممَّا يلحظ فيه اعتناؤه بما ظهر من البدع في عصره.

✻ ✻ ✻

وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ: الإيمَانُ بِأَنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيرُ مَخلُوقٍ، مِنهُ بَدَأَ، وَإِلَيهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذِي أَنزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ غَيرِهِ.

وَلَا يَجُوزُ إِطلَاقُ القَولِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَن كَلَامِ اللهِ، أَو عِبَارَةٌ عَنهُ؛ بَل إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَو كَتَبُوهُ بِذَلِكَ فِي المَصَاحِفِ؛ لَم يَخرُج بِذَلِكَ عَن أَن يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَىٰ مَن قَالَهُ مُبتَدِئًا، لَا إِلَىٰ مَن قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا، وَهُوَ كَلَامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ؛ لَيسَ كَلَامُ اللهِ الحُرُوف دُونَ المَعَانِي، وَلَا المَعَانِيَ دُونَ الحُرُوفِ.

الشرح

أقول: صدَّر المؤلِّف الكتاب بقوله بذكر العقيدة أنها الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته والقدر خيره وشره، ثم تكلَّم عمَّا يتعلَّق بالإيمان بالله، فتكلَّم عمَّا يتعلَّق بالأسماء والصفات، وخصَّ بعض الصفات بمزيد بيان، وخصَّ هذا الباب ببسطه، فأفرد في هذا الباب من الرسالة تقريبًا ثلاثة أو أربعة فصول، ولمَّا انتهىٰ من الكلام عمَّا يتعلَّق بالإيمان بالله، بدأ الكلام عمَّا يتعلَّق بالإيمان بالكتاب، الذي هو القرآن الكريم، والكلام عن القرآن الكريم هو امتدادٌ للكلام عن الصفات، لكنَّ له أحكامًا تخصُّه، فكلام الله صفةٌ من صفاته، فالله ﷻ يتكلَّم، ومن كلامه ما أنزله علىٰ رسوله محمَّد ﷺ القرآن، هذا المجموع بين الدفَّتين، المبتدأ بسورة الفاتحة والمُختتم بسورة الناس، هذا كلام الله وصفة من

صفاته، وصفاتُ الله لا تُطاق، ولكن الله امتنَّ علينا بأن يسَّر لنا القرآن.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

فلولا أن يسَّر الله لنا القرآن ما كنَّا نُطيق هذا الكتاب قراءةً ولا سماعًا، لكن الله يسَّره لنا، وكرَّر الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، امتنانًا من الله علينا في تيسيره لنا هذا الكلام المتلوَّ المجموع بين الدفَّتين.

وعقيدة أهل السنَّة والجماعة في القرآن: أنَّ الله ﷻ تكلَّم بهذا القرآن، وسمعه منه جبريل، وأدَّاه جبريل إلىٰ الرسول ﷺ كما سمعه من الله، وبلَّغه إلينا رسولُ الله ﷺ كما سمعه من جبريل، هكذا ينصُّون علىٰ الكلام والسماع، ويتجنَّبون الكلام المُجمل الذي يحتمل وجوهًا، كقول بعضهم: «تلقَّاهُ جبريل عن الله»، فهذا مُحتمل أنه تلقَّاه بألفاظه ومعانيه، ومُحتمل أنه تلقَّاهُ بمعانيه وعبَّر هو عنه بلفظه، وهذه دسيسةٌ لمن يتأوَّل في صفة الكلام، فهو يهرب من أن يقول: تكلَّم الله به، وسمعه منه جبريل، إلىٰ أن يقول: تلقَّاهُ جبريل عن الله.

أو كقول بعضهم: «إن الله أفاض القرآن علىٰ جبريل فنزل به علىٰ محمَّد ﷺ، فبلَّغه لنا محمَّد ﷺ كما بلَّغه إيَّاه جبريل»! والدسُّ هنا أن هذا القرآن المتلُوَّ ليس كلام الله، وإنَّما كلام جبريل، أو كلام الرسول، والمعاني من الله!

وأثر هذه العقيدة هو ما ترونه في كتب أصول الفقه التي صنَّفها الأشاعرة والمعتزلة، فهم يرون أنَّ الأوامر في القرآن لا تُفيد الوجوب، وكذلك النواهي

لا تفيد التحريم؛ لأنهم يرون أن هذا القرآن ليس كلامَ الله، وأن هذا المعنىٰ عبَّر عنه جبريل، فلا نجزم أنه أمر أو نهي علىٰ الحقيقة، إلَّا إذا جاءت قرائن أخرىٰ، فهذا القول سببُه هذه العقيدة الفاسدة، والجُرأة التي ترونها عند بعض الأشاعرة والمعتزلة في التصرُّف مع كلام الله، سببها أنهم يرون أن هذا الكلام ليس له قُدسيَّةٌ؛ لأنه ليس كلام الله، وإنما كلام جبريل ﷺ، فهو لفظٌ دالٌّ علىٰ المعنىٰ القائم في ذات الله ﷻ الذي هو المعنىٰ النفسي، بينما أهل السنَّة لا تجدون في مباحثهم في الأصول مثل هذا البحث الذي أدخله المتكلِّمون الذين هم علىٰ عقيدة الأشاعرة وعلىٰ عقيدة المعتزلة، الذين يرون أنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- لم يتكلَّم بهذا القرآن الموجود بين الدَّفَّتين، في باب الأوامر وفي باب النواهي عندهم مسألة.

فأهل السنَّة عندهم الأمر يقتضي الوجوب، والنهي يقتضي التحريم؛ بظاهر دلالة اللفظ شرعًا، وليس لغةً فقط؛ لأنهم يعتقدون أن هذا القرآن كلام الله[1].

---

(١) أثر العقيدة في مسائل العلوم الشرعية ممَّا ينبغي أن يُكتب فيه بحث، وقد كنت تكلَّمت مع بعض الإخوة في الجامعة الإسلامية، فقال: كتبت بحثًا عن أثر العقيدة في «الوقوف في القرآن»، أي: باب علم الوقف والابتداء، ومعلوم أن علم الوقف والابتداء مبناه علىٰ الاجتهاد، وهو يقوم علىٰ أساس معاني القرآن، فلاحَظ هذا الأخ في رسالته أن جماعة مثل الأشموني وغيره ممَّن كتب في الوقوف، أنه كان يحدِّد الوقف في مواطن بحسَب معتقده في هذا الباب، فإذا كان يؤوِّل بعض الصفات وجاءت الآية فيها الصفة، يقف ويعمل أمورًا كثيرة في الوقوف مراعاةً لهذا المعنىٰ.

ولذلك أنا أقول: لو أمكن أن يكتب طالب بحثًا عامًّا كبيرًا في أثر العقيدة في كلام المتكلِّمين في العلوم الشرعية، سيجد أشياء عجيبة في هذا الباب، فمثلًا: القولُ بالمجاز وإدخالُه في =

وقول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنهُ بَدَأَ»: يعني: أن الله تكلَّم به ابتداءً، والمقصود الردُّ علىٰ مَن يقول من أهل البدع أن الله خلق كلامًا في غيره؛ كالشجرة فهي التي تكلَّمت، فنصَّ أهل السنَّة علىٰ أنَّ الله تكلَّم بذاته تَعَالَىٰ، وأنَّه هو الذي تكلَّم بالقرآن، فسمعه منه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قوله: «وَإِلَيهِ يَعُودُ»: أي: هذا القرآن قريبًا من قيام الساعة، يرفعه الله من المصاحف، ولذلك تجدون في كلام أهل السنَّة أنهم يحثُّون أهل السنَّة؛ يقولون: استمتعوا بالبيت قبل أن يُهدم، وبالقرآن قبل أن يُرفع[1].

=

تفسير القرآن وفي شرح الحديث، سببُه العقيدة، فلظنِّهم واعتقادهم أنه لابدَّ أن تتأوَّل هذه الأسماء والصفات، فتحوا باب المجاز، فمن أثر العقيدة في تناول العلوم الشرعية إدخال باب المجاز، وهكذا تجدون أمورًا كثيرة يمكن أن تُجمع في هذا الباب.

(١) أخرج الدارمي في «سننه» (٤/ ٢١٠٥ رقم ٣٣٨٤- الداراني)، والفاكهي في «أخبار مكة» (١/ ١٩١-١٩٢، رقم ٣٠٦- دهيش)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٢٢، رقم ١٦٥٨٦)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١/ ٢٧٠، رقم ٢٨٧- السلوم)، عَن نَاجِيَةَ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتبَةَ، عَن أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ عَبدُ اللهِ: «أَكثِرُوا الطَّوَافَ بِالبَيتِ مِن قَبلِ أَن يُرفَعَ وَيَنسَىٰ النَّاسُ مَكَانَهُ، وَأَكثِرُوا تِلَاوَةَ القُرآنِ مِن قَبلِ أَن يُرفَعَ قَالَ: هَذِهِ المَصَاحِفُ تُرفَعُ فَكَيفَ مَا فِي صُدُورِ الرِّجَالِ؟ قَالَ: يُسرَىٰ عَلَيهِم لَيلًا فَيُصبِحُوا مِنهُ قَفرًا، وَيَنسَونَ قَولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَقعُونَ فِي قَولِ الجَاهِلِيَّةِ وَأَشعَارِهِم، فَذَلِكَ حِينَ يَقَعُ عَلَيهِمُ القَولُ، يَعنِي: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل:٨٢]».

لفظ الدارمي مختصر بذكر القرآن فقط. وإسناده ضعيف؛ فيه موسىٰ بن عبيدة الربذي؛ ضعيف؛ كما «التقريب». وناجية بن عبد الله، ذكره البخاري في «تاريخه» (٨/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٨/ ٤٨٧)، ولم يذكرا فيها جرحًا ولا تعديلًا، ووثَّقه العجلي (٢/ ٣٠٨- البستوي)، وابنُ حبَّان (٧/ ٥٣٩). وأخرجه ابنُ المبارك في «الزهد والرقائق» (١/

=

=
٢٧٧، رقم ٨٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٣٩٧-٣٩٨، رقم ١٨٦٨)، من طريقين عن موسىٰ بن سعد -يعني: ابن زيد بن ثابت-، عن ناجية بن عبد الله، عَن أَبِيهِ، عَنِ ابنِ مَسعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: «اقرَءُوا القُرآنَ قَبلَ أَن يُرفَعَ؛ فَإِنَّهُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُرفَعَ، قَالُوا: هَذِهِ المَصَاحِفُ تُرفَعُ فَكَيفَ بِمَا فِي صُدُورِ النَّاسِ؟ قَالَ: يُعدَىٰ عَلَيهِ لَيلًا فَيُرفَعُ مِن صُدُورِهِم، فَيُصبِحُونَ فَيَقُولُونَ: لكَأَنَّا كنَّا نَعلَم شَيئًا، ثُمَّ يقعونَ فِي الشِّعرِ». وموسىٰ بنُ سعد مقبول، كما في «التقريب».

أمَّا أمر رفع القرآن؛ فقد صحَّ عن عبد الله بن مسعود ﷺ؛ فأخرج عبد الرزاق في «المصنَّف» (٣/ ٣٦٢، رقم ٥٩٨٠ و٥٩٨١)، وابنُ أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٤٥، رقم ٣٠١٩٣- الرشد)، وسعيد بن منصور في «التفسير» (٢/ ٣٣٥ رقم ٩٧- الصميعي)، والحاكم (٤/ ٥٤٩- رقم ٨٥٣٨)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٥/ ٣٦٥- رقم ١٧٤ و١٧٥ و١٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٣٩٩- رقم ١٨٦٩) وغيرهم، عن عبد الله بن مسعود قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفقِدُونَ مِن دِينِكُمُ الأَمَانَةُ، وَآخِرَ مَا يَبقَىٰ الصَّلَاةُ، وَإِنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذِي بَينَ أَظهُرِكُم يُوشِكُ أَن يُرفَعَ، قَالُوا: وَكَيفَ يُرفَعُ وَقَد أَثبَتَهُ اللهُ فِي قُلُوبِنَا وَأَثبَتنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ: يُسرَىٰ عَلَيهِ لَيلَةً فَيَذهَبُ مَا فِي قُلُوبِكُم وَمَا فِي مَصَاحِفِكُم، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء:٨٦]». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٢): «رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، غَيرَ شَدَّادِ بنِ مَعقِلٍ وَهُوَ ثِقَةٌ».

وأخرجه الدارمي (٤/ ٢١٠٦، رقم ٣٣٨٦- الداراني)، من وجه آخر مختصرًا بلفظ: «لَيُسرَيَنَّ عَلَىٰ القُرآنِ ذَاتَ لَيلَةٍ وَلَا يُترَكُ آيَةٌ فِي مُصحَفٍ، وَلَا فِي قَلبِ أَحَدٍ إِلَّا رُفِعَت». وإسناده حسن.

وله شواهد مرفوعة: فأخرج ابنُ ماجه في «سننه» في كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، حديث رقم (٤٠٤٩)، وفيه: «وَلَيُسرَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ عَجَلَّ فِي لَيلَةٍ، فَلَا يَبقَىٰ فِي الأَرضِ مِنهُ آيَةٌ». وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٨٧). ويروىٰ نحوُه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ انظر: «إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن وأشراط الساعة» للتويجري (٣/ ٢١٤-٢١٦). وهذا الموقوفُ له حكم الرفع، فيقوِّي الحديث المرفوع.
=

فقولُه: «إِلَيهِ يَعُودُ»: أي: في آخر الزمان لمَّا يرفعه الله من المصاحف.

قوله: «وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذِي أَنزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامَ غَيرِهِ»: فليس هو كلام جبريل، وليس كلام الشجرة أو محلٍّ جعل الله فيه القرآن، فتكلَّم به، إنَّما هو كلامُ الله حقيقةً، والله ﷻ هو الذي تكلَّم به.

قوله: «وَلَا يَجُوزُ إِطلاقُ القَولِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَن كَلَامِ اللهِ، أَو عِبَارَةٌ عَنهُ»؛ لأنه هذا سلبٌ لصفة الله، وتعطيلٌ لصفة الله تعالى، فلا يجوز ذلك، يقول ابنُ قُتَيبة رحمه الله: «قد تبيَّن لمن قد عرف اللُّغة، أن القول يقع فيه المجاز، فيقال: قال الحائط فمال، وقُل برأسك إليَّ؛ أي: أَمِله، وقالت النَّاقة، وقال البعير.

ولا يقال في مثل هذا المعنىٰ: تكلَّم، ولا يُعقل الكلام إلَّا بالنُّطق بعَينِه، خلا موضع واحدٍ، وهو أن تتبيَّن في شيء من المَوات عبرةً وموعظةً، فتقول: خبَّر، وتكلَّم، وذكَّر؛ لأنه دلَّك معنىٰ فيه، فكأنه كلَّمك،...والله تعالىٰ يقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، فوكَّد بالمصدر معنىٰ الكلام، ونفىٰ عنه المجاز.

وقال: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠].

=

وأمَّا رفع البيت؛ فقد ورد في حديث مرفوع أخرجه ابنُ خزيمة في «صحيحه» (٤/ ١٢٨، رقم ٢٥٠٦)، وابن حبَّان (١٥/ ١٥٣، رقم ٦٧٥٣)، والحاكم (١/ ٦٠٨، رقم ١٦١٠)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «استَمتِعُوا مِن هَذَا البَيتِ، فَإِنَّهُ قَد هُدِمَ مَرَّتَينِ، وَيُرفَعُ فِي الثَّالِثَةِ». وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٥١).

فوكَّد القول بالتكرار، ووكَّد المعنىٰ بإنَّما»(١).

فدلَّ ذلك أن الكلام من الله حقيقةً لم يتكلَّم به غيرُه، ولم يجعل غيره ينطق بهذا، وهذه قاعدة عربيَّةٌ نتحاكم إليها عند مَن يقول هذا عند العرب، أمَّا قول القائل: إن الكلام في النفس، كما قال الشاعر:

إنَّ الكلامَ لفي الفؤادِ وإنَّما ... جُعِلَ اللِّسانُ على الفؤادِ دَلِيلَا

وأن الكلام هذا المراد به المعنىٰ النفسي، فأقول:

أوَّلًا: هذا البيت للأخطل، والأخطل نصرانيٌّ مولَّد، ليس من أهل اللسان العربي.

ثانيًا: أنَّ الكلام والقراءة والقول في لسان العرب عند الإطلاق، لا يكون إلا باللفظ وبالحرف وحركة اللسان والشفة، فإذا أراد غير هذا المعنىٰ قيَّده، قال: كلام النفس، كلام الخاطر، يُقيِّده، أمَّا عند الإطلاق فلا يُفيد إلا هذا اللفظ بحركة اللسان والشفة(٢).

---

(١) «تأويل مشكل القرآن» (ص٧٣- الكتب العلمية)، وانظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٥١- الكتب العلمية)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١٠/ ١٤٨- إحياء التراث العربي).

(٢) انظر: «مجموع فتاوىٰ» ابن تيمية (٧/ ١٣٨-١٤٠) و(١٥/ ٣٥-٣٦).

فائدة: علىٰ أساس هذا المعنىٰ؛ ما معنىٰ القراءة السِّرِّية في الصلاة؟ ليس معنىٰ القراءة السِّرِّية أنَّك تقف صامتًا، وتقول: أنا أقرأ في قلبي! فإن القراءة لابدَّ فيها من حركة اللسان، ولذلك تجدهم في كتب الفقه يقولون: إن حدَّ القراءة السِّرِّية أن تُسمِع نفسك، واختار ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يكفي فيها حركةُ اللِّسان والشفة، والقراءة الجهرية أن يسمعك مَن يليك أو كان قريبًا منك، =

فالقرآنُ كلامُ الله حقيقةً، تكلَّم الله ﷻ به، واللَّفظ والمعنىٰ من الله، فلا نقول: تلقَّاه جبريلُ، أو نقول: أوحاه إلىٰ جبريل، بل نقول: تكلَّم الله به، وسمعه جبريلُ، وبلَّغه جبريل إلىٰ الرسول ﷺ كما سمعه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَل إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَو كَتَبُوهُ بِذَلِكَ فِي المَصَاحِفِ؛ لَم يَخرُج بِذَلِكَ عَن أَن يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَىٰ مَن قَالَهُ مُبتَدِئًا، لَا إِلَىٰ مَن قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلَامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ؛ لَيسَ كَلَامُ اللهِ الحُرُوفَ دُونَ المَعَانِي، وَلَا المَعَانِيَ دُونَ الحُرُوفِ»: أي: هذه الألفاظ وما دلَّت عليها من معانٍ هي كلامُ الله، هذا كلُّه من الله ﷻ، ولذلك نقول: إن للقرآن أربع وجودات.

الأوَّل: الوجود الذهني.

الثاني: الوجود الرسمي وهو الكتابة.

الثالث: الوجود النطقي بالصوت.

الرابع: الوجود التشخيصي الحقيقي.

فالقرآن الكريم إذا حفظتَه في نفسك وفي ذهنك وفي قلبك؛ فهذا وجود ذهني، فإذا ما تكلَّمتَ به وقرأتَه؛ فهذا وجود لفظي، فإذا ما كتبتَه في المصحف؛ فهذا وجود رسمي، فإذا ما عملتَ به وطبَّقته وقُمت بمعانيه؛ فهذا وجود أيضًا،

=

فلا يُعدُّ قارئًا مَن لم يحرِّك لسانَه وشَفتيه. كذلك أذكارُ الصباح والمساء لابدَّ فيها من حركة اللسان والشفة؛ لأن المطلوب قراءتُها، وإذا لم تفعل ذلك؛ لم تقرأ أذكار الصباح والمساء.

ولذلك كان -عليه الصلاة والسلام- خُلقُه القرآن، والله عَزَّ وَجَلَّ جمع هذه الوجودات في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق:١-٤].

فـ(اقرأ) باللَّفظ، ثم بعد أن يُلفظ أوَّل مرَّة يصير في الذهن، فهذان وجودان؛ وجود ذهني ووجود نطقي، وقوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ هذا الوجود الرسمي، والعمل نتيجةُ العلم بما في هذا القرآن الكريم، وهو الوجود الرابع، فاجتمعت الوجودات الأربعة، فالقرآن موجود بهذه الأربعة، فهو لفظًا ومعنًى من عند الله تَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

وَقَد دَخَلَ أيضًا فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ المُؤمِنِينَ يَرَونَهُ يَومَ القِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبصَارِهِم كَمَا يَرَونَ الشَّمسَ صَحوًا لَيسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ، يَرَونَهُ سُبحَانَهُ وَهُم فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَونَهُ بَعدَ دُخُولِ الجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى.

الشرح

رجع الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ثاني مرَّة إلىٰ الصفات، لو كان بيدي؛ لكنت ذكرت هذه الصفة قبل ذكر كلام الله تعالىٰ والقرآن، فيكون ذكر صفة الفوقية وصفة القُرب ثم ذكر صفة الرؤية، والقاعدة فيها هي ما تقدَّم.

* * *

فَصلٌ

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ: الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعدَ المَوتِ، فَيُؤمِنُونَ بِفِتنَةِ القَبرِ، وَبِعَذَابِ القَبرِ وَنَعِيمِهِ. فَأَمَّا الفِتنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِم، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَبِيُّكَ؟ فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ المُؤمِنُ: اللهُ رَبِّي، وَالإِسلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي.

وَأَمَّا المُرتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدرِي، سَمِعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئًا فَقُلتُهُ، فَيُضرَبُ بِمِرزَبَّةٍ مِن حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيحَةً يَسمَعُهَا كُلُّ شَيءٍ؛ إِلَّا الإِنسَانَ، وَلَو سَمِعَهَا الإِنسَانُ؛ لَصُعِقَ.

الشرح

عاد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ المعاني التي ذكرها مجملةً في أوَّل الكتاب، فتكلَّم عمَّا يتعلَّق بالإيمان بالله، وتكلَّم عمَّا يتعلَّق بالإيمان بالكتب، ومن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل.

ثمَّ شرع في هذا الفصل في الكلام عمَّا يتعلَّق بالإيمان باليوم الآخر، فذكر أوَّل منزلٍ من منازل الآخرة، وهو القبر؛ والآخرة والدنيا بينهما عالم اسمُه عالم البرزخ، فالقبر وعالم البرزخ هو أوَّل منزل من منازل الآخرة، وأشار فيه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أمر يدخل في الإيمان باليوم الآخر، وهو ما يحصل من

الفتنة في هذا القبر؛ فإن الرسول ﷺ ذكر أنَّ المؤمن أوَّل ما يُوضع في القبر ينضمُّ عليه القبر ضمًّا، فيضغطه ضغطة شديدة ثم يفكُّه، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ لِلقَبرِ ضَغطَةً، وَلَو كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنهَا نَجَا مِنهَا سَعدُ بنُ مُعَاذٍ»(١).

وقد كان سعد رضي الله عنه كبيرًا من كبراء الأنصار في المدينة، ثم بعد هذه الضمَّة يسمع الميِّت قرع نعال الذين يدفنونه إذا ولَّوا عنه بعد فراغهم من دفنه، ثمَّ يأتيه ملكان اسمهما منكر ونكير كما جاء في الحديث، فيسألانه: من ربُّك، ما دينُك، من رسولُك؟ فإن كان مؤمنًا ثبَّته الله وأجاب جواب المؤمنين المصدِّقين، وإن كان منافقًا لم يُحسن جوابًا، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فهذا التثبيت الذي يكون في الحياة الدنيا؛ لأن الدنيا لم تنقَضِ بعدُ، والقبر أوَّلُ منازل الآخرة، وهذا الأمر شديدٌ.

ولذلك علَّمنا الرسول ﷺ في كلِّ تشهُّد أن نستعيذ بالله من أربعٍ: يَقُولُ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن عَذَابِ القَبرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن فِتنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن فِتنَةِ المَحيَا وَالمَمَاتِ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠/ ٣٢٧ تحت رقم ٢٤٢٨٣- الرسالة)، والبغوي في «مسند ابن الجعد» (١٥٤٨- عامر حيدر)، وابن حبان (٣١٠٢- التعليقات الحسان)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٩٢- الرشد)، وفي «إثبات عذاب القبر» (ص٨٢- الفرقان)، عن عائشة رضي الله عنها. وذكر له الألباني في «الصحيحة» (١٦٩٥) شاهدين عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما. وقال: «جملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: مَا يُستَعَاذُ مِنهُ فِي الصَّلَاةِ، حديث (٥٩٠)، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

فعند فتنة القبر يثبُت أهل الإيمان، ويُرتج على أهل النفاق فلا يستطيعون أن يُجيبوا، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الملكين لمَّا يسألان الرجل فلا يُجيب ويقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس! قال ﷺ: «**فَيُقَالُ: لَا دَرَيتَ وَلَا تَلَيتَ، ثُمَّ يُضرَبُ بِمِطرَقَةٍ مِن حَدِيدٍ ضَربَةً بَينَ أُذُنَيهِ، فَيَصِيحُ صَيحَةً يَسمَعُهَا مَن يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَينِ**»(١).

ولذلك قال الرسول ﷺ: «**وَاللهِ لَو تَعلَمُونَ مَا أَعلَمُ لَبَكَيتُم كَثِيرًا، وَلَضَحِكتُم قَلِيلًا**»(٢)؛ لأن الله ﷻ قد أسمعه شيئًا من هذا الأمر الغيبي؛ فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَولَا أَلَّا تَدَافَنُوا، لَدَعَوتُ اللهَ أَن يُسمِعَكُم مِن عَذَابِ القَبرِ الَّذِي أَسمَعُ مِنهُ**»(٣).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب المَيِّتُ يَسمَعُ خَفقَ النِّعَالِ، حديث (١٣٣٨)، عن أنس بن مالك ﵁.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كَيفَ كَانَت يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ، حديث (٦٦٣١)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب صَلَاةِ الكُسُوفِ، حديث رقم (٩٠١)، عن عائشة ﵂.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صِفَةِ القِيَامَةِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، باب: عَرضِ مَقعَدِ المَيِّتِ مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ عَلَيهِ، وَإِثبَاتِ عَذَابِ القَبرِ وَالتَّعَوُّذِ مِنهُ، حديث (٢٨٦٧).

ثُمَّ بَعدَ هَذِهِ الفِتنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَىٰ أَن تَقُومَ القِيَامَةُ الكُبرىٰ، فَتُعَادُ الأَروَاحُ إِلَىٰ الأَجسَادِ.

وَتَقُومُ القِيَامَةُ الَّتِي أَخبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجمَعَ عَلَيهَا المُسلِمُونَ.

الشرح

قول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَقُومُ القِيَامَةُ الَّتِي أَخبَرَ اللهُ بِهَا»: يُفهم منه مع قوله المتقدِّم: «إِلَىٰ أَن تَقُومَ القِيَامَةُ الكُبرىٰ»، يفهم منه أن هناك قيامةً صغرىٰ! فما هي القيامة الصغرىٰ؟

القيامة الصغرىٰ هي حضور الموت؛ فإذا مات ابن آدم فقد قامت قيامتُه، فهو يشير إلىٰ ما ورد في الأثر: «إِذَا مَاتَ ابنُ آدمَ قَامَت قِيَامَتُهُ»[(١)].

❊ ❊ ❊

(١) أخرج الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٤٦٨-٤٦٩)، والدولابي في «الكنىٰ» (٣/ ٩٣٠- الفاريابي)، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «يَقُولُونَ: القِيَامَةُ القِيَامَةُ، وَإِنَّمَا قِيَامَةُ أَحَدِهِم: مَوتُهُ». وأخرج الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٤٦٩)، وفي «تهذيب الآثار- مسند عمر» (٢/ ٥٤٨- شاكر)، والدولابي في «الكنىٰ» (٣/ ٩٣٠- الفاريابي)، عَن أَبِي قَيسٍ عبد الرحمن ابن ثروان، قَالَ: رَأَيتُ عَلقَمَةَ فِي جَنَازَةٍ، فَلَم يَزَل قَائِمًا حَتَّىٰ دُفِنَ، فَقَالَ: «أَمَّا هَذَا فَقَد قَامَت قِيَامَتُهُ». أمَّا ما يروىٰ مرفوعًا: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُم؛ فَقَد قَامَت قِيَامَتُهُ»؛ فهو ضعيف لا يصحُّ؛ انظر: «الضعيفة» للألباني (٥٤٦٢).

فَيَقُومُ النَّاسُ مِن قُبُورِهِم لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرلًا، وَتَدنُو مِنهُمُ الشَّمسُ، وَيُلجِمُهُمُ العَرَقُ، فَتُنصَبُ المَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعمَالُ العِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢- ١٠٣].

الشرح

تضمَّنت هذه الجملة عدَّة أمور:

الأمر الأوَّل: إثبات قيامة الناس من قبورهم لربِّ العالمين حفاةً عراةً غُرلًا، حفاةً؛ يعني: بلا أحذية، عُراةً؛ يعني: بلا لباس، غُرلًا؛ أي: غير مختونين، يعني: تعود إليهم الجلدة التي قُطعت في الختان.

الأمر الثاني: دنو الشمس من الخلق، فروىٰ مسلم(١)، عن المقداد بن الأسود ﷺ قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدنَىٰ الشَّمسُ يومَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلقِ، حَتَّىٰ تكُونَ مِنهُم كَمِقدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدرِ أَعمَالِهِم فِي العَرَقِ، فَمِنهُم مَن يَكُونُ إِلَىٰ كَعبَيهِ، وَمِنهُم مَن يَكُونُ إِلَىٰ رُكبَتَيهِ، وَمِنهُم مَن يَكُونُ إِلَىٰ حَقوَيهِ، وَمِنهُم مَن يُلجِمُهُ العَرَقُ إِلجَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَىٰ فِيهِ.

الأمر الثالث: نصب الموازين، فنُؤمن أن هناك ميزانًا يزن الله ﷻ به الأعمال، ويجعل الله للأعمال أجسادًا وصورًا؛ كما جاء في الحديث في ذكر حال المؤمن:

(١) في «صحيحه»: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: صفة القيامة، حديث (٢٨٦٤).

«وَيأتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبشِر بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يومُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَن أَنتَ؟ فَوَجهُكَ الوَجهُ يَجِيءُ بِالخَيرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّىٰ أَرجِعَ إِلَىٰ أَهلِي وَمَالِي».

وجاء في ذكر حال الكافر: «وَيَأتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبشِر بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَومُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَن أَنتَ؟ فَوَجهُكَ الوَجهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئُ، فَيَقُولُ: رَبِّي لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

وجاء في الحديث أن من الأعمال ما يكون علىٰ بطاقات، مثلما ورد في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِن أُمَّتِي يومَ القِيامَةِ عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ، فَيُنشَرُ لَهُ تِسعَةٌ وَتِسعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ ﷻ: هَل تُنكِرُ مِن هَذَا شَيئًا؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمَتكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عُذرٌ، أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيُهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِندَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلمَ عَلَيكَ اليَومَ، فَتُخرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ:

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٤٩٩-٥٠٣ تحت رقم ١٨٥٣٤)، والحاكم (١/ ٩٣-٩٧)، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما. وصحَّحه الحاكم علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبيُّ. ووافقهما الألبانيُّ في «أحكام الجنائز» (ص١٥٩)، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح».

فيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ»(١).

والشاهد أنه ذكر أن العمل يمثَّل في بطاقة، فمن الأعمال ما يُصوَّر، ومن الأعمال ما يكون في بطاقة، والله أعلم كيف تكون سائر الأعمال، فقد جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «هَل تَدرُونَ مَنِ المُفلِس»؟ قَالُوا: المُفلِسُ فِينَا، يَا رَسُولَ اللهِ، مَن لَا دِرهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. قَالَ: «إِنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتِي مَن يَأتِي يَومَ القِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأتِي قَد شَتَمَ عِرضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، فَيُقعَدُ، فَيَقُصُّ هَذَا مِن حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِن حَسَنَاتِهِ، فَإِن فَنِيَت حَسَنَاتُهُ قَبلَ أَن يَقضِيَ مَا عَلَيهِ مِنَ الخَطَايَا، أُخِذَ مِن خَطَايَاهُم فَطُرِحَت عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(٢).

إذن نؤمن أن هناك ميزانًا، وأن الأعمال توزن، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

* * *

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٥٧٠-٥٧١ تحت رقم ٦٩٩٤)، والترمذي في أبواب الإيمان، باب: مَا جَاءَ فِيمَن يَمُوتُ وَهُوَ يَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، حديث رقم (٢٦٣٩)، وابنُ ماجه في كتاب الزهد، باب: مَا يُرجَىٰ مِن رَحمَةِ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ، حديث رقم (٤٣٠٠)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقال الترمذي: «حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ». وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب: تَحرِيمِ الظُّلمِ، حديث (٢٥٨١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَتُنشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَو مِن وَرَاءِ ظَهرِهِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٣- ١٤].

الشرح

أقول: كتابُ ابن آدم فيه ثلاثة دواوين:

الديوان الأوَّل: ديوانٌ لا يغفره الله؛ وهو الشِّرك.

الديوان الثاني: ديوان هو في مشيئة الله، وهو ما كان بين العبد وربِّه، فإن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه.

الديوان الثالث: ديوان حقوق الناس، وهذا الديوان لابدَّ فيه من القصاص يوم القيامة.

وأخطر هذه الدواوين الديوان الأوَّل والديوان الأخير؛ فإن سلمتَ من الشرك؛ فحاول أن تسلم من حقوق الناس؛ فإن هذا الديوان لابدَّ فيه من القصاص في ذاك اليوم، فإذا كان يُقاصُّ بين الدابَّة الجمَّاء والقرناء؛ فحقوق العباد بعضهم علىٰ بعض كذلك لا يغفرها الله، وإنما تبقىٰ علىٰ الإنسان حتىٰ يُقتصَّ منه.

* * *

وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِقَ، وَيَخلُو بِعَبدِهِ المُؤمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الكُفَّارُ؛ فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَن تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتِ لَهُم، وَلَكِن تُعَدُّ أَعمَالُهُم، فَتُحصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجزَونَ عَلَيهَا.

الشرح

في ذلك اليوم تُحاسب الخلائق المؤمنون والكفار، فأمَّا أهل الكفر فما عملوه من عمل صالح؛ فيجزون عليه في الدنيا، بأن يعجِّل لهم في الحياة الدنيا، ولذلك كان المؤمنون الخُلَّص إذا رأوا أنه فُتح لهم من الدنيا شيء؛ خافوا أن تكون عُجِّلت لهم حسناتُهم في الدنيا، ولا يُعطون منها في الآخرة.

وأمَّا المؤمن فكما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِقَ، وَيَخلُو بِعَبدِهِ المُؤمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

ففي الحديث عن رسول ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُدنِي المُؤمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيهِ كَنَفَهُ وَيَستُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعرِفُ ذَنبَ كَذَا، أَتَعرِفُ ذَنبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَم أَي رَبِّ، حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرتُهَا عَلَيكَ فِي الدُّنيَا، وَأَنَا أَغفِرُهَا لَكَ اليَومَ، فَيُعطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ...» الحديث[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب: قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، حديث (٢٤٤١)، ومسلم في كتاب التوبة، باب: قَبُولِ تَوبَةِ القَاتِلِ وَإِن كَثُرَ قَتلُهُ، حديث (٢٧٦٨)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا الكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَن تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ»؛ وذلك لأنهم لا حسنات لهم، وما عملوه من أعمال الخير في الدنيا استوفوا أجره بما عجَّل الله لهم من الدنيا، ولذلك نذكِّر ونقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧]!

فالله عَزَّوَجَلَّ يمتِّعهم في الدنيا بما فعلوه من أمور الخير، ثمَّ مآلهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فيعذِّبهم علىٰ أعمالهم السيِّئة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَكِن تُعَدُّ أَعمَالُهُم، فَتُحصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا وَيُجزَونَ عَلَيهَا»؛ أي: الأعمال السيِّئة؛ لأنهم لا عملَ حسنٌ لهم، وشرطُ قبول العمل وكونه حسنًا الإخلاص والمتابعة، فما عملوا من عمل في ظاهره الصلاح يُعجَّل لهم في الدنيا؛ لأنه لا إخلاص عندهم في أعمالهم التي يعملونها، فلا حسنات لهم في الآخرة.

***

وَفِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ الحَوضُ المَورُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحلَىٰ مِنَ العَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهرٌ، وَعَرضُهُ شَهرٌ، مَن يَشرَبُ مِنهُ شَربَةً؛ لَا يَظمأُ بَعدَهَا أَبَدًا.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عرصات القيامة»: العرصة: هي الموضع الواسع الذي لا بناء فيه، وعرصةُ الدار ساحتها، فعرصات القيامة مواقفُها؛ فممَّا ينبغي أن نؤمن به الحوض المورود الذي أعدَّه الله تَعَالَىٰ للرسول ﷺ، فماؤه من الكوثر، وهو أحلىٰ من العسل، وأشدُّ بياضًا من اللبن، عليه كيزان، يُنصب في تلك العرصات، فينادي رسول الله ﷺ والملائكة أمَّته لكي يشربوا، فيأتي الناس جماعات ليشربوا منه، فتردُّ الملائكة من يأتي منهم من أهل النفاق، وهؤلاء سِمتهم العامَّة أنَّهم من أمَّة محمد ﷺ، ولكنَّهم في حقيقتهم ليسوا من أمَّة محمد ﷺ، وتردُّ كذلك أصحاب البدع المكفِّرة وأصحاب البدع الشنيعة الكبيرة؛ فإنَّ هؤلاء يؤخَّرون عن هذا الحوض عقوبةً لهم في العرصات، فلا يشربون منه، وقد جاء في صفة هذا الحوض ما في الصحيحين[1]، عن عَبد اللهِ بن عَمرو بنِ العَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«حَوضِي مَسِيرَةُ شَهرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطيَبُ مِنَ المِسكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَن**

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث (٦٥٧٩)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: إِثبَاتِ حَوضِ نَبِيِّنَا ﷺ وَصِفَاتِهِ، حديث (٢٢٩٢).

شَرِبَ مِنهُ فَلَا يَظمَأُ بَعدَهُ أَبَدًا».

وفيهما(١)، عن أنس بن مالك ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ قَدرَ حَوضِي كَمَا بَينَ أَيلَةَ وَصَنعاءَ مِنَ اليَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ».

وماؤه من نهر الكوثر الذي ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:١].

ففي «صحيح مسلم»(٢)، عن أنس بن مالك ﵁، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أَتدرُونَ مَا الكَوثَرُ؟» فَقُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷿، عَلَيهِ خَيرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوضٌ تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ...». الحديث.

فهذا ممَّا ينبغي أن نؤمن به، علىٰ ما ورد في القرآن وفي الأحاديث.

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث (٦٥٨٠)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: إِثبَاتِ حَوضِ نَبِيِّنَا ﷺ وَصِفَاتِهِ، حديث (٢٣٠٣).

(٢) في كتاب الصلاة، باب: حُجَّةِ مَن قَالَ: البَسمَلَةُ آيَةٌ مِن أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ سِوَىٰ بَرَاءَة، حديث (٤٠٠).

وَالصِّرَاطُ مَنصُوبٌ عَلَىٰ مَتنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الجِسرُ الَّذِي بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيهِ عَلَىٰ قَدرِ أَعمَالِهِم، فَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَلَمحِ البَصَرِ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالبَرقِ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنهُم مَن يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ، وَمِنهُم مَن يَزحَفُ زَحفًا، وَمَنهُم مَن يُخطَفُ وَيُلقَىٰ فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الجِسرَ عَلَيهِ كَلَالِيبُ تَخطِفُ النَّاسَ بِأَعمَالِهِم، فَمَن مَرَّ عَلَىٰ الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ. فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيهِ؛ وَقَفُوا عَلَىٰ قَنطَرَةٍ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقتَصُّ لِبَعضِهِم مِن بَعضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ.

الشرح

أقول: الصراط ممَّا ينبغي أن يؤمن به المؤمن، وقد جاء في وصفه أنه أحَدُّ من السيف وأدَقُّ من الشعرة[1]، وأنه منصوب علىٰ جهنم، وأن المرور عليه هو

(١) ورد عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: مَعرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤيَةِ، حديث (١٨٣)، ولفظه: قال أبو سعيد: «بَلَغَنِي أَنَّ الجِسرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيفِ».

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠٨) و(٤/ ٦٣٢)، عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا، في حديث طويل وصحَّحه. وتعقَّبه الذهبيُّ بقوله: «ما أنكره حديثًا علىٰ جودة إسناده!». قال الألبانيُّ متعقِّبًا الذهبيَّ في «الصحيحة» (٢/ ٦٢٠ تحت رقم ٩٤٢): «قلتُ: ترجَمَه الذهبيُّ وغيرُه، ولم يذكر أحدٌ أنَّه شيعيٌّ، ثم هو مختلَف فيه. وقال الحافظ: «صدوق يخطئ كثيرًا »». وصحَّحه في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٩١). وأخرج أسد بنُ موسىٰ في «الزهد» (٤٣- التوعية الإسلامية)، وابنُ أبي شيبة (٧/ ٥٩)، وابنُ الأعرابي في «معجمه» (١٨٢٧- ابن الجوزي)، والآجرِّي في «الشريعة» (٨٩٤)، واللَّالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل =

المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١].

وأن مرور الناس علىٰ هذا الصراط الذي يجعله الله ﷻ علىٰ جهنم إلىٰ النار بحسَب العمل، فمن الناس مَن يمشي كالبرق، ومن الناس من يمشي كالفرس السريع، ومن الناس من يمشي كالجاري من البشر، ومن الناس من يمشي عليه مشيًا، ومن الناس من يمشي ويكبو، ومن الناس من يزحف زحفًا حتىٰ يصل، وعليه كلاليبُ قد تخطف من أُمرت به، فتوقعه في النار بما أراد الله ﷻ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ﴾ [النساء:٤٨].

فإذا خلص النَّاس إلىٰ نهاية الصراط كانوا في مكان بين الجنة والنار، واقتُصَّ بينهم هناك مظالم بينهم؛ فإذا هُذِّبوا أذن لهم بدخول الجنَّة؛ لأنَّنا نعتقد أن المسلم لا يخرج عن اسم الإسلام بالمعصية، فقد يفعل كبيرة ويدخل الجنَّة، أمَا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ﴾، فقد يكون مسلمٌ ظلم مسلمًا أو اعتدىٰ عليه، فيُقتصُّ منهم في ذاك المحلِّ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنَّة، هذا ممَّا ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ فنحن نؤمن به

=

السنة والجماعة» (٢٢٢١)، عن سلمان ﷺ قال: «يُوضَعُ الصِّرَاطُ يَومَ القِيَامَةِ وَلَهُ حَدٌّ كَحَدِّ المُوسَىٰ»، قَالَ: «وَيُوضَعُ المِيزَانُ، وَلَو وُضِعَت فِي كِفَّتِهِ السَّمَوَاتُ وَالأَرضُ وَمَا فِيهِنَّ لَوَسِعَتهُم، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: رَبَّنَا، لِمَن تَزِنُ بِهَذَا؟ فَيَقُولُ: لِمَن شِئتُ مِن خَلقِي، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا عَبَدنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ».

وهذا موقوفٌ، وسندُه صحيحٌ، وله حكمُ الرفع. وقال السخاويُّ في «الأجوبة المرضية» (٣/ ٩٠٦- الراية): «نقلُ أبي سعيد المشار إليه قد ورد تصريحُ الرفع عن غيره، من طرق متعدِّدة، يقوِّي بعضُها بعضًا».

ونعتقده كما أخبرنا به ﷺ؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَخلُصُ المُؤمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحبَسُونَ عَلَىٰ قَنطَرَةٍ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعضِهِم مِن بَعضٍ مَظَالِمُ كَانَت بَينَهُم فِي الدُّنيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُم أَهدَىٰ بِمَنزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنهُ بِمَنزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنيَا»(١).

وهذه المُفردات هي التي يسمِّيها علماء الكلام السمعيات الآحادية، لا يُثبتونها ويجعلونها في محلِّ الظنِّ.

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة، حديث (٦٥٣٥).

وَأَوَّلُ مَن يَستَفتِحُ بَابَ الجَنَّةِ النبيُّ مُحمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَن يدخُلُ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ.

وَلَهُ ﷺ فِي القِيامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَىٰ؛ فَيَشفَعُ فِي أَهلِ المَوقِفِ حَتَّىٰ يُقضَىٰ بَينَهُم بَعدَ أَن يَتَرَاجَعَ الأَنبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ ابنُ مَريَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّىٰ تَنتَهِيَ إِلَيهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشفَعُ فِي أَهلِ الجَنَّةِ أَن يَدخُلُوا الجَنَّةَ. وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشفَعُ فِيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيرِهِم، فَيَشفَعُ فِيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ أَلَّا يَدخُلَهَا، وَيَشفَعُ فِيمَن دَخَلَهَا أَن يَخرُجَ مِنهَا.

وَيُخرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَل بِفَضلِهِ وَرَحمَتِهِ، وَيَبقَىٰ فِي الجَنَّةِ فَضلٌ عَمَّن دَخَلَهَا مِن أَهلِ الدُّنيَا، فَيُنشِئُ اللهُ لَهَا أَقوَامًا فَيُدخِلُهُمُ الجَنَّةَ.

الشرح

أقول: بعد أن ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يكون في الآخرة من الميزان ومن الصراط ومن الحوض، تابَعَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقرير الأمور التي تكون في اليوم الآخر، فقال: «وَأَوَّلُ مَن يَستَفتِحُ بَابَ الجَنَّةِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ».

أقول: وهذه من خصائص النبيِّ ﷺ وخصائص أمَّته دون الأنبياء، وقد أفردها

العلماء بالتصنيف في كتب «الخصائص»، يعني: الأمور التي خُصَّ بها الرسولُ ﷺ دون غيره من الأنبياء، مثل قوله ﷺ: «أُعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قبلِي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسِيرَةَ شَهرٍ، وَجُعِلَت لِي الأَرضُ مَسجِدًا وطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِن أُمَّتِي أَدرَكَتهُ الصَّلاةُ فَليُصَلِّ، وَأُحِلَّت لِي المَغَانِمُ وَلَم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبلِي، وَأُعطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَىٰ قَومِهِ خَاصَّةً وَبُعِثتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»(١).

فمن خصائصه أيضًا ﷺ ما جاء في الحديث أنه أوَّل من يستفتح من الأنبياء أبواب الجنَّة(٢).

وأوَّل أمَّة تدخل الجنَّة هي أمَّته ﷺ(٣)، وفي ذلك يقول -عليه الصلاة والسلام-: «نَحنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَومَ القِيَامَةِ، وَنَحنُ أَوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم، حديث (٥٣٥)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، حديث (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «شرف المصطفىٰ» لأبي سعد الخركوشي (٤/ ٢٤٤)، و«الأنوار في شمائل النبيِّ المختار» للبغوي (ص٦٢-٦٣، اليعقوبي)، و«الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (ص ٢٨٢-٢٨٣)، و«نهاية السول في خصائص الرسول» لابن الملقِّن (ص٢٦٧- البشائر الإسلامية)، و«إمتاع الأسماع» للمقريزي (٣/ ٣٠٩- الكتب العلمية) و(١٠/ ٢٧٨- الكتب العلمية)، و«الخصائص الكبرىٰ» للسيوطي (٢/ ٣٨٩- الكتب العلمية)، و«سُبل الهدىٰ والرشاد» للصالحي (١٠/ ٣٨٦- الكتب العلمية).

(٣) انظر: «الأنوار في شمائل النبيِّ المختار» للبغوي (ص٦٥)، و«منية السول في تفضيل الرسول» للعز بن عبد السلام (ص٢٨-الكتاب الجديد)، و«الخصائص الكبرىٰ» للسيوطي (٢/ ٣٩٤).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، باب: هِدَايَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ لِيَومِ الجُمُعَةِ، حديث (٨٥٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: «الآخرون»: يعني آخر الأمم، و«الأوَّلون»: أوَّل الأمم دخولًا الجنَّة، وهذا من خصائصه وخصائص أمَّتهﷺ دون سائر الأمم والأنبياء.

وقد أفرد العلماء هذه الخصائص بمصنَّفات أثراها وأوعبها كتاب «الخصائص الكبرىٰ» للسيوطي، إلا أن فيه مواضع كثيرة تحتاج إلىٰ نظر في ثبوتها.

ومن خصائصه أيضًا ﷺ ما عقَّب به المصنِّف فقال: «وَلَهُ ﷺ فِي القِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ»: الشفاعة الأولىٰ وهي الشفاعة العظمىٰ في القضاء بين الخلق من أجل دخول الجنَّة ودخول النار، وهذه الشفاعة الكبرىٰ يتراجع عنها الأنبياء؛ فإن الناس لمَّا يشتدُّ بهم الأمر في المحشر ويطول وقوفهم علىٰ تلك الحال، فتكون الشمس علىٰ بُعد مِيل عنهم، فمنهم مَن يُغطِّي العرق رأسه، ومنهم مَن يبلغ العرق أذنيه، ومنهم مَن يبلغ العرق صدره، ومنهم ما دون ذلك بحسَب حال الناس، فيتحاورون بينهم لينظروا من يشفع لهم ليريحهم من كرب ذلك الموقف.

ففي الصحيحين[1]، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدنُو الشَّمسُ، فَيَبلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَربِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَونَ مَا قَد بَلَغَكُم، أَلَا تَنظُرُونَ مَن يَشفَعُ لَكُم إِلَىٰ رَبِّكُم؟**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء:٣]، حديث (٤٧١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، حديث (١٩٤).

فَيقولُ بعضُ النَّاسِ لِبعضٍ: عَليكُم بِآدمَ، فيأتُونَ آدمَ ﷺ، فيقولُونَ لهُ: أنتَ أبُو البَشرِ، خلقَكَ اللهُ بيدِهِ، ونفخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وأمَرَ الملائِكةَ فسَجدُوا لكَ، اشفَع لنَا إلىٰ ربِّكَ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فِيهِ، ألا ترىٰ إلىٰ ما قد بلَغنا؟ فيقولُ آدمُ: إنَّ ربِّي قد غضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغضَب قبلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بعدَهُ مِثلَهُ، وإنَّهُ قد نهانِي عَنِ الشَّجرَةِ فعصَيتُهُ، نفسِي نفسِي نفسِي، اذهبُوا إلىٰ غيرِي، اذهبُوا إلىٰ نُوحٍ.

فيأتُونَ نُوحًا فيقولُونَ: يَا نُوحُ، إنَّكَ أنتَ أوَّلُ الرُّسلِ إلىٰ أهلِ الأرضِ، وقَد سمَّاكَ اللهُ عبدًا شكُورًا، اشفَع لنَا إلىٰ ربِّكَ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فِيهِ؟ فيقولُ: إنَّ ربِّي ﷻ قد غضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغضَب قبلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بعدَهُ مِثلَهُ، وإنَّهُ قد كانَت لِي دعوةٌ دعوتُها علىٰ قومِي، نفسِي نفسِي نفسِي، اذهبُوا إلىٰ غيرِي، اذهبُوا إلىٰ إبراهِيمَ.

فيأتُونَ إبراهِيمَ فيقولُونَ: يَا إبراهِيمُ، أنتَ نبيُّ اللهِ وخليلُهُ مِن أهلِ الأرضِ، اشفَع لنَا إلىٰ ربِّكَ ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فِيهِ، فيقولُ لهُم: إنَّ ربِّي قد غضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغضَب قبلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بعدَهُ مِثلَهُ، وإنِّي قد كُنتُ كذَبتُ ثلاثَ كذِباتٍ - فذكَرهُنَّ أبُو حيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نفسِي نفسِي نفسِي، اذهبُوا إلىٰ غيرِي، اذهبُوا إلىٰ مُوسَىٰ.

فيأتُونَ مُوسَىٰ فيقولُونَ: يَا مُوسَىٰ، أنتَ رَسُولُ اللهِ، فضَّلَكَ اللهُ برِسالَتِهِ وبِكلامِهِ علىٰ النَّاسِ، اشفَع لنَا إلىٰ ربِّكَ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فِيهِ؟ فيقولُ: إنَّ ربِّي قد غضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغضَب قبلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بعدَهُ مِثلَهُ، وإنِّي

قَد قَتَلتُ نَفسًا لَم أُومَر بِقَتلِهَا، نَفسِي نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَىٰ غَيرِي، اذهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ بنِ مَريَمَ.

فَيَأتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ، أَنتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَىٰ مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ، وَكَلَّمتَ النَّاسَ فِي المَهدِ صَبِيًّا، اشفَع لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ قَطُّ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَلَم يَذكُر ذَنبًا، نَفسِي نَفسِي نَفسِي اذهَبُوا إِلَىٰ غَيرِي اذهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ.

فَيَأتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنبِيَاءِ، وَقَد غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشفَع لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحنُ فِيهِ، فَأَنطَلِقُ فَآتِي تَحتَ العَرشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يَفتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِن مَحَامِدِهِ وَحُسنِ الثَّنَاءِ عَلَيهِ شَيئًا، لَم يَفتَحهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارفَع رَأسَكَ سَل تُعطَه، وَاشفَع تُشَفَّع».

فيسأل النبيُّ ﷺ الله عَزَّوَجَلَّ أن يقضي بين الناس، فهذه الشفاعة العظمىٰ.

الشفاعة الثانية: أن يستشفع لأهل الجنَّة في دخول الجنَّة -عليه الصلاة والسلام-.

وهاتان الشفاعتان خاصَّتان للرسول ﷺ من دون الأنبياء، ولا أحد من الأنبياء يشفع هذه الشفاعة الأولىٰ أو هذه الشفاعة الثانية.

أمَّا الشفاعة الثالثة: فهي شفاعة يُشاركه فيها غيرُه، من الأنبياء والأولياء والصالحين والشهداء وغير ذلك، وهي أنه يشفع فيمن استحقَّ النار ألَّا يدخل

النار، وقد جاء في ذلك قولُه ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهلِ الكَبَائِرِ مِنَ أُمَّتِي»(١). فيشفع فيهم النبيُّ ﷺ، فيدخلهم الله تعالى الجنَّة.

قال المصنف رحمه الله: «وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيرِهِم، فَيَشفَعُ فِيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ أَلَّا يَدخُلَهَا، وَيَشفَعُ فِيمَن دَخَلَهَا أَن يَخرُجَ مِنهَا. وَيُخرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَل بِفَضلِهِ وَرَحمَتِهِ، وَيَبقَىٰ فِي الجَنَّةِ فَضلٌ عَمَّن دَخَلَهَا مِن أَهلِ الدُّنيَا، فَيُنشِئُ اللهُ لَهَا أَقوَامًا فَيُدخِلُهُمُ الجَنَّةَ».

وقد جاء في ذلك حديث عن الرسول ﷺ بهذا المعنىٰ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَل مِن مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنزَوِي بَعضُهَا إِلَىٰ بَعضٍ وَتَقُولُ: قَط قَط، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الجَنَّةِ فَضلٌ حَتَّىٰ يُنشِئَ اللهُ لَهَا خَلقًا، فَيُسكِنَهُم فَضلَ الجَنَّةِ»(٢).

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢٠/ ٤٣٩، رقم ١٣٢٢٢)، وأبو داود في كتاب شرح السنَّة، باب في الشفاعة، حديث (٤٧٣٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وورد من حديث جابر وابن عمر رضي الله عنهم. وصحَّحه الألبانيُّ كما في «ظلال الجنَّة» (٢/ ٣٩٨-٤٠٠، رقم ٨٣٠-٨٣٢)، وفي «صحيح الجامع» (٣٧١٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، حديث (٧٣٨٤)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: النَّارُ يَدخُلُهَا الجَبَّارُونَ وَالجَنَّةُ يَدخُلُهَا الضُّعَفَاءُ، حديث (٢٨٤٨).

وَأَصنَافُ مَا تَضَمَّنَتهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذكُورَةٌ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ العِلمِ المَأثُورِ عَنِ الأَنبِيَاءِ، وَفِي العِلمِ المَورُوثِ عَن مُحَمَّدٍ ﷺ مِن ذَلِكَ مَا يَشفِي وَيَكفِي، فَمَنِ ابتَغَاهُ وَجَدَهُ.

الشرح

هنا المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يُقرِّر أمرًا يدلُّ علىٰ صدق نبوَّته ﷺ، فما هو هذا الأمر؟!

نقول: إنَّ ما دعا إليه الرسول ﷺ وما ذكره من أمور اليوم الآخر، ورد في كتب النبيِّين من قبله ﷺ، فجاء في كتب النبيِّين الدعوةُ إلىٰ التوحيد، وجاء في كتب النبيِّين الدعوةُ إلىٰ العمل الصالح من أجل اليوم الآخر، وجاء في كتب النبيِّين ذكرُ الحساب والعقاب وما يكون في ذلك اليوم من الجنَّة والنار وما إلىٰ ذلك، ولكن أكثر الأنبياء وأكثر الكتب تفصيلًا في ذلك هو نبيُّنا محمَّد ﷺ في كتابه الذي أنزله الله ﷻ وهو القرآن العظيم، فمن أراد أن يقف علىٰ شيء من هذا الباب؛ فلينظر فيما جاء في القرآن الكريم عن اليوم الآخر.

وقد أفرد العلماء -رحمهم الله- هذا الموضوع بالتصنيف؛ من ذلك:

- «الأهوال» لعبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ).
- و«الأهوال»، و«صفة النار»، و«صفة الجنة» كلها لابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ).
- و«البعث» لابن أبي داود (ت ٣١٦هـ).

- و«صفة الجنة» لأبي نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ).

- و«البعث والنشور» للبيهقي (ت ٤٥٨هـ).

- ومصنَّفٌ لعبد الحقِّ الإشبيلي (ت ٥٨١هـ) اسمه: «العاقبة في ذكر الموت».

- ومصنَّف للقرطبي (ت ٦٧١هـ) اسمُه: «التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة».

- وهناك مصنَّف مُفرد في الجنَّة لابن قيِّم الجوزية (ت٧٥١هـ) اسمه: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح».

- وهناك مصنَّف مفرد في النار لابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) اسمه: «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار».

فهذه مصنَّفاتٌ لأهل العلم فيمن أراد أن يقف ويتوسَّع في هذا الباب.

ولا شكَّ أن الإيمان بالجنَّة والنار يورث لدىٰ صاحبه الحركة إلىٰ العمل، فيطلب رضا الله سبحانه ودخول الجنة، ويخشىٰ غضب الله ودخول النار، فتذكُّر مثل هذه الموضوعات ومراجعتها والقراءة فيها ممَّا يورث في القلب رِقَّةً وحافزًا للإنسان أن يعمل وأن يسعىٰ.

* * *

وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ. وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَىٰ دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيئَينِ.

فَالدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِمَ مَا الخَلق عَامِلُونَ بِهِ بِعِلمِهِ القَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحوَالِهِم مِنَ الطَّاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَقَادِيرَ الخَلقِ. فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قَالَ لَهُ: اكتُب. قَالَ: مَا أَكتُبُ؟ قَالَ: اكتُب مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ. فَمَا أَصَابَ الإِنسَانَ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ، وَمَا أَخطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وَهَذَا التَّقدِيرُ التَّابِعُ لِعِلمِهِ سُبحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُملَةً وَتَفصِيلًا؛ فَقَد كَتَبَ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الجَنِينِ قَبلَ نَفخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيهِ مَلَكًا، فَيُؤمَرُ بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكتُب: رِزقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَم سَعِيدٌ.. وَنَحوَ ذَلِكَ.

فَهَذَا التَّقدِيرُ قَد كَانَ يُنكِرُهُ غُلَاةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنكِرُهُ اليَومَ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَم يَشَأ لَم يَكُن، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ مِن

حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبحَانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ مِنَ المَوجُودَاتِ وَالمَعدُومَاتِ، مَا مِن مَخلُوقٍ فِي الأَرضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَد أَمَرَ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُم عَن مَعصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحسِنِينَ وَالمُقسِطِينَ، وَيَرضَىٰ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ، وَلَا يَرضَىٰ عَنِ القَومِ الفَاسِقِينَ، وَلَا يَأمُرُ بِالفَحشَاءِ، وَلَا يَرضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفرَ، وَلَا يُحِبُّ الفَسَادَ.

وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أَفعَالِهِم. وَالعَبدُ هُوَ: المُؤمِنُ، وَالكَافِرُ، وَالبَرُّ، وَالفَاجِرُ، وَالمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. وَلِلعِبَادِ قُدرَةٌ عَلَىٰ أَفعَالِهِم، وَلَهُم إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُم وَخَالِقُ قُدرَتِهِم وَإِرَادَتِهِم؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ»(١). وَيَغلُو فِيهَا قَومٌ مِن أَهلِ الإِثبَاتِ، حَتَّىٰ سَلَبُوا العَبدَ

---

(١) صحَّ هذا عن ابن عمر رضي الله عنهما: أخرجه ابنُ بطَّة في «الإبانة الكبرى» (٤/ ١٠١، رقم ١٥١٧) و(٤/ ١٠٢، رقم ١٥٤٩)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٤١٠)، من طريق سفيان الثوري، عن عمر بن محمد، عن نافع، عن ابن عمر بلفظ: «لكل أمة مجوس، وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر». وقال البيهقي: «هذا إسناد صحيح».

وأخرجه عبد الله بن أحمد في «السنَّة» (٩٥٨- ابن القيم)، وابن بطَّة في «الإبانة» (٤/ ١٢١، رقم ١٥٤٨)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٤/ ٢٧٢-٢٧٣، رقم ١٢٩٢)، من =

قُدرَتَهُ وَاختِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَن أَفعَالِ اللهِ وَأَحكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

الشرح

أقول: هذا المقطع من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعرَّض فيه لمراتب القدر، وموضوع القدر سبقت الإشارة إليه وإلىٰ مراتبه الأربعة، ولكن سأذكر هنا نُكات علميةً في التعليق علىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

النكتة الأولىٰ: في قوله: «وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ».

أقول: المراد هنا بقوله: «القدر خيره وشره»، وكون القدر شرًّا بالنسبة لما يظنُّه الإنسان، وإلَّا فإن الشرَّ ليس إلىٰ الله، وليس في مقادير الله ما هو شرٌّ محض علىٰ الحقيقة، فحتىٰ ما تظنُّه أنه شرٌّ قد يتبيَّن لك إذا تأمَّلت أنه خير، وقد لا يتبيَّن؛ فعلمه عند الله، ففيه من الخير ما الله به عليم، فقوله ﷺ: «أن تؤمن بالقدر خيره وشرِّه» أي: هو شرٌّ بالنسبة لما تظنُّه أنت، لا في حقيقة الحال، فإنه ليس فيما يُقدِّره الله ﷻ علىٰ العبد إلَّا ما هو من عدله وحكمته وما هو خير، فليس هناك شرٌّ محض في مقادير الله، وهذه عقيدة أهل السنَّة والجماعة في هذا الباب، وفي الحديث: «وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ»(١).

=

طرق عن عمر بن محمد، عن نافع، قال: «جاء رجل إلىٰ عبد الله بن عمر فقال: ناسٌ يتكلَّمون بالقدر، فقال: أولئك القدريون، وأولئك يصيرون إلىٰ أن يكونوا مجوس هذه الأمة».

(١) أخرجه مسلم في حديث طويل في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث (٧٧١)، عن عليٍّ رضي الله عنه.

النكتة الثانية: إذا قيل: مراتب القدر أربعٌ، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلمَ دمج كلَّ مرتبتين في درجة، فأصبحت درجتين؟

الجواب: السرُّ في صنع الإمام ذلك -والله أعلم- أن المرتبة الأولىٰ والثانية اللَّتين دمجهما في الدرجة الأولىٰ، مُنكرها كافر عند أهل العلم؛ لأنه يُنكر علم الله، ويُكذِّب ما أثبته الله في كتابه من علمه، وما أثبته في كتابه وفي سنَّة رسوله أيضًا من علمه ومن كتابة المقادير، فمن أنكر المرتبة الأولىٰ والثانية اللَّتين أدرجهما الشيخ في الدرجة الأولىٰ فهذا كافر.

أمَّا مَن أنكر المرتبة الثالثة والرابعة اللَّتين دمجهما الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدرجة الثانية فهذه يُبدَّع صاحبُها، وهو علىٰ خطر عظيم، ولا يُحكم بأن هذه المقالة كفرٌ؛ إنما يحكم علىٰ صاحبها بأنه من أهل البدع الخطيرة، فهذا هو السِّرُّ في صنيع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

النكتة الثالثة: قول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الدرجة الأولىٰ: «الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِمَ مَا الخَلْقُ عَامِلُونَ بِهِ بِعِلْمِهِ القَدِيمِ»، فذكر كلمة «القديم»، ومعلوم أنَّ كلمة «القديم» ليست من أسماء الله، ولا مِن صفاته الواردة نصًّا في الكتاب ولا في السنَّة، ويُغني عنها الأوَّل الذي ليس قبله شيء، ولكن الشيخ أوردها مِن باب الإخبار عن صفات الله بمعنىٰ صحيح.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول «منهاج السنَّة النبوية» لمَّا تكلم عن قضية القديم قال: هذا مِن الأوصاف المُجملة التي يُستفصل عن المراد فيها قبل أن يُحكم

عليها، فإن ذكر معنىٰ صحيحًا حَكمنا بصحَّته، وإن ذكر معنىٰ غير صحيحٍ رددناه(١). فهنا استعمل كلمة القديم بمعنىٰ الأزل؛ فإنه قال: «بِعِلمِهِ القَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا»، بمعنىٰ أن الله ﷻ منذ الأزل فهو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، فكان عالمًا بما سيكون في هذا الخلق، ويكفي في الدلالة علىٰ ذلك حديث: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكتُب، فَجَرَىٰ فِي تِلكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يومِ القِيَامَةِ**»(٢). وكان ذلك قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة.

ولذلك اختلف العلماء، فيما جاء عَنِ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: خَلَقَ اللهُ اللَّوحَ المَحفُوظَ كَمَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ، فَقَالَ لِلقَلَمِ قَبلَ أَن يَخلُقَ الخَلقَ وَهُوَ عَلَىٰ العَرشِ: اكتُب، فَقَالَ القَلَمُ: وَمَا أَكتُبُ؟ قَالَ: عِلمِي فِي خَلقِي إِلَىٰ يومِ القِيَامَةِ السَّاعَةَ، فَجَرَىٰ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ فِي عَلمِ اللهِ إِلَىٰ يومِ القِيَامَةِ، فَذَلِكَ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَعلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ**»(٣).

في قول ابن عبَّاس: «قَبلَ أَن يَخلُقَ الخَلقَ»؛ (أل) في قوله: (الخلق)، مَن فهمها أنها للشُّمول وللاستغراق، قال: القلم هو أوَّل المخلوقات، ومَن فهم أنَّ (أل) للعهد، أي: هذا الخلق المعهود لنا السموات والأرضين، فقال: القلم ليس

---

(١) انظر: «منهاج السنَّة النبوية» (٢/ ١٢٣ و١٣١- جامعة الإمام)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ١٧١-١٧٢، المجمع).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٣١).

أوَّل المخلوقات؛ إن الله كان ولم يكن شيء معه، كان ولم يكن شيء غيره، كان ولم يكن شيء قبله، ثم كان في عماء، ثم خلق العرش واستوىٰ علىٰ العرش، ثمَّ خلق القلم، فلم يجعلوا الأوَّلية للقلم في الخلق، وهذا الثاني لعلَّه الأرجح؛ لوجود أدلَّةٍ وقرائن تُشير إليه، فهنا الأوَّلية في قوله: «إِنَّ أَوَلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ» هي أوَّليةٌ بالنسبة إلىٰ خلق القلم، يعني في الوقت الذي خُلق فيه القلم.

ويؤكده ما جاء عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ، قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أَن يَخلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ»[1]. فذكر خلق السموات والأرض، فدل علىٰ أن (أل) للخلق المعهود.

النكتة الرابعة: قوله: «وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحوَالِهِم مِنَ الطَّاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرزَاقِ وَالآجَالِ».

أقول: فيه ردٌّ علىٰ الذين يُنكرون علم الله بالجزئيات، ويقولون: إنما يعلم الله الأمور علىٰ العموم! لأن المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ قال: «عَلِمَ جَمِيعَ أَحوَالِهِم مِنَ الطَّاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرزَاقِ وَالآجَالِ»، فالله عَزَّ وَجَلَّ يعلم كلَّ شيء، وجاء النصُّ بذلك في القرآن والسنَّة، فتنصيص الإمام علىٰ ذلك فيه ردٌّ علىٰ من أنكر علم الله بالجزئيات، وبالأشياء الجزئية، قال الله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، بَابُ حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حديث رقم (٢٦٥٣).

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

النكتة الخامسة: قولُه: «وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الجَنِينِ قبلَ نَفخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيهِ مَلَكًا».

أقول: أورد المصنِّف هذا ليُبيِّن أن علم الله منه علمٌ لا يعلمه أحد، لا مَلَك مُقرَّب، ولا نبيٌّ مُرسل، ومِن عِلم الله ما يُطلِع عليه بعض خلقه؛ مِن ذلك ما جاءت الإشارة إليه عند خلق الإنسان؛ قال النبيُّ ﷺ: **«إِنَّ أَحَدَكُم يُجمَعُ خَلقُهُ فِي بَطنِ أُمِّهِ أَربَعِينَ يومًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضغَةً مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤمَرُ بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكتُب عَمَلَهُ، وَرِزقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَو سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنفَخُ فِيهِ الرُّوحُ...»** الحديث[1].

وأورد المصنِّف هذا الأمر لغرض آخر؛ وهو أنَّ الله ﷻ قد يُطلع بعض الخلق علىٰ جملة من علمه، ومِن عِلمه ما لا يعلمه إلَّا هو، فمِن ذلك ما يكون عند خلق الإنسان، ومِن ذلك ما يكون عند تكليف الملائكة بأمر من الأمور، فإنَّ الله قد يُطلع المَلَك علىٰ شيء مُجمل في أمور الخلق لكي يقوم بما أمره الله ﷻ به، كما يُعلم مَلَك الموت أنك ستقبض فلانًا في المكان الفلاني في الساعة الفلانية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، حديث (٣٢٠٨)، ومسلم في كتاب القدر باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمِّه، حديث (٢٦٤٣)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

علىٰ هذا الحال، فهذه من الأمور التي يُطلع الله ﷻ عليها بعض خلقه، ولا يوجد مَن يُشارك الله ﷻ في عِلمه، ومَن يدَّعي أن هناك مخلوقًا يعلم علم الله؛ فقد كذب علىٰ الله، ولذلك كان من الغلوِّ الكفري قولُ صاحب «البردة»[(١)]:

فَـإِنَّ مِـن جُـودِكَ الدُّنـيَا وَضَـرَّتَهَا ... وَمِـن عُلُـومِكَ عِلـمَ اللَّـوحِ وَالقَلَـمِ

فجعل من علم الرسول ﷺ علم ما في الكتاب المحفوظ! والله ﷻ يأمر الرسول ﷺ أن يقول للنَّاس: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وبالمناسبة أنبِّه علىٰ عبارة وردت في حديث اختصام الملأ الأعلىٰ؛ إذ جاء فيه: «فَعَلِمتُ كُلَّ شَيءٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ».

وفي رواية: «فَتَجَلَّىٰ لِي كُلُّ شَيءٍ وَعَرَفتُ»[(٢)]؛ أي: فيما يتعلَّق بموض

(١) «ديوان البوصيري -مع شرح الباجوري-» (ص٢٧- مكتبة الصفا).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٢٢-٤٢٣ تحت رقم ٢٢١٠٩)، والترمذي في كتاب التفسير، في تفسير سورة (ص)، حديث رقم (٣٢٣٥)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، والحديث قال الترمذيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، سَأَلتُ مُحَمَّدَ بنَ إِسمَاعِيلَ عَن هَذَا الحَدِيثِ؟ فَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». وصحَّحه الألبانيُّ في «إرواء الغليل» (٣/ ١٤٧).

وفي الباب: عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: عند أحمد (٥/ ٤٣٧-٤٣٨ تحت رقم ٣٤٨٤)، والترمذيِّ في الباب نفسه: حديث رقم (٣٢٣٣)، وصحَّحه عنه محقِّق «جامع الأصول» (٩/ ٥٤٨).

وعن عبد الرحمن بن عائش عن بعض أصحاب النبيِّ ﷺ: عند أحمد (٢٧/ ١٧١-١٧٢ تحت رقم ١٦٦٢١).

وعن عبد الرحمن بن عائش عن رسول الله ﷺ: عند الدارمي في كتاب الرؤيا - باب في رؤية الرب تعالىٰ في النوم، (٢/ ١٣٦٥-١٣٦٧ تحت رقم ٢١٩٥)، من طريق الوليد بن مسلم، =

السؤال لا في كلِّ علم الله تَعَالَى، فهذا الحديث من باب ما خرج مخرج العام والمراد به الخاص؛ وهذه نقطة مهمَّة يجبُ أن تنتبهوا لها، أن معنىٰ هذه الكلمة في هذا الحديث أن الرسول لم يَعلم إلَّا ما يتعلَّق بموضع السؤال.

والدليل أيضًا من نفس الحديث علىٰ أنَّ الرسول ﷺ لا يعلم كلَّ شيء؛ لأن الرسول ﷺ لمَّا سُئِل: فيمَ اختصم الملأ الأعلىٰ؟ فقال: «لَا أَدرِي»، إذن عَلِم ما يتعلَّق بموضوع السؤال، فليس في علم الرسول ﷺ عِلم اللَّوح والقلم، ولا ينبغي أن يُقال أنَّ أحدًا من خلق الله يعلم علم الله تَعَالَى أو يساوي الله عَزَّ وَجَلَّ في علمه، فقد يُطلع الله بعض خلقه علىٰ جملة من الأمور الغيبية، لكن لا يُحيط بعلم الله تَعَالَى أحدٌ من الخلق.

النكتة السادسة: قوله: «قَبلَ نَفخِ الرُّوحِ»؛ فمتىٰ يكون نفخ الرُّوح؟

أقول: جاء في الحديث: «**إِنَّ أَحَدَكُم يُجمَعُ خَلقُهُ فِي بَطنِ أُمِّهِ أَربَعِينَ يَومًا، فَيَكُونَ عَلَقَةً مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضغَةً مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرسِلُ اللهَ إِلَيهَ المَلَكَ**»، فذكر مائةً وعشرين ليلة، وجاء في حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ

=

وهذا الطريق قال عنه البخاري بعد تصحيحه للحديث من طريق عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن مُعاذٍ، قال: «هَذَا أَصَحُّ مِن حَدِيثِ الوَلِيدِ بنِ مُسلِمٍ، عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدُ بنُ اللَّجلَاجِ: حَدَّثَنِي عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَايِشٍ الحَضرَمِيُّ، قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ وَهَذَا غَيرُ مَحفُوظٍ، هَكَذَا ذَكَرَ الوَلِيدُ فِي حَدِيثِهِ عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ عَايِشٍ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَرَوَىٰ بِشرُ بنُ بَكرٍ عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ هَذَا الحَدِيثَ بِهَذَا الإِسنَادِ عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ عَايِشٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهَذَا أَصَحُّ، وَعَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَايِشٍ لَم يَسمَع مِنَ النَّبِيِّ ﷺ». اهـ

قال: «يَدخُلُ المَلَكُ عَلَىٰ النُّطفَةِ بَعدَمَا تَستَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَربَعِينَ، أَو خَمسَةٍ وَأَربَعِينَ لَيلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَو سَعِيدٌ؟ فَيُكتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَي رَبِّ أَذَكَرٌ أَو أُنثَىٰ؟ فَيُكتَبَانِ، وَيُكتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزقُهُ، ثُمَّ تُطوَىٰ الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنقَصُ»(١).

فدلَّ ذلك علىٰ أنه بعد الأربعين الأولىٰ يكون فيه حياة.

فأشكل هذا مع حديث الصادق المصدوق، الذي فيه أن نفخ الروح بعد الأربعين الثالثة.

وقد فتح الله بمعنًىٰ أقرِّره يزيل الإشكال -إن شاء الله-؛ وذلك أن الحياة نوعان: حياة نامية، مثل التي تكون في النبات، وحياة متحرِّكة مثل حياة الإنسان والحيوان، فالحياة التي يكون عليها خلق الإنسان من الأربعين الأولىٰ هي الحياة النامية التي يتكون فيها مثلما ينبت النبات، والحياة التي يكون عليها بعد الأربعين الثالثة هي الحياة المتحركة بنفخ الروح.

وقد جاء إشارة إلىٰ هذا في ذكر البعث، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَينَ النَّفخَتَينِ أَربَعُونَ» قَالَ: أَربَعُونَ يومًا؟ قَالَ: «أَبَيتُ»، قَالَ: أَربَعُونَ شَهرًا؟ قَالَ: «أَبَيتُ»، قَالَ: أَربَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: «أَبَيتُ»، قَالَ: «ثُمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنبُتُونَ كَمَا يَنبُتُ البَقلُ، لَيسَ مِنَ الإِنسَانِ شَيءٌ إِلَّا يَبلَىٰ، إِلَّا عَظمًا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب: كَيفِيَّةِ خَلقِ الآدَمِيِّ فِي بَطنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزقِهِ وَأَجلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، حديث رقم (٢٦٤٤).

وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)].

ومحلُّ الشاهد قوله ﷺ: «فَيَنبُتُونَ كَمَا يَنبُتُ البَقلُ»، مع قول الله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فهذا يفيد أن في مراحل خلق الإنسان مرحلة تكون له فيه حياة نامية، مثل نمو النبات، فهذه هي التي جاء ذكرها في حديث حذيفة بن أسيد، أما الحياة المتحركة بنفخ الروح فتكون بعد الأربعين الثالثة.

وعليه؛ فنفخ الروح في الحياة المتحركة بعد الأربعين الثالثة، كما في حديث ابن مسعود ﷺ، وهو لا ينافي الحياة النامية التي يكون عليها بعد الأربعين الأولىٰ، وإتيان الملك وسؤاله الله عن تلك الأسئلة، المذكورة في حديث حذيفة بن أسيد ﷺ. والله الموفِّق[(٢)].

النكتة السابعة: قوله: «قَد كَانَ يُنكِرُهُ غُلاةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنكِرُهُ اليَومَ قَلِيلٌ»: أي: ينكرون علم الله ﷻ، وقد جاء في «صحيح مسلم»[(٣)] أن قولهم انتشر في عهد الصحابة، وذلك في قصَّة حديث جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فعَن يَحيَىٰ بنِ يَعمَرَ، قَالَ: «كَانَ أَوَّلَ مَن قَالَ فِي القَدَرِ بِالبَصرَةِ مَعبَدٌ الجُهَنِيُّ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ:١٨] زمرًا، حديث رقم (٤٩٣٥)، ومسلم، في الفتن وأشراط الساعة باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥).

(٢) هذا التقرير في رفع الإشكال بين الحديثين، غير ما قرَّرته في الدرس، فليُعتمد ما هاهنا، والله المستعان.

(٣) في كتاب الإيمان، باب معرفة الإسلام والإيمان والإحسان، حديث (٨).

فَانطَلَقتُ أَنَا وَحُمَيدُ بنُ عَبدِ الرَّحمَنِ الحِميَرِيُّ حَاجَّينِ -أَو مُعتَمِرَينِ- فَقُلنَا: لَو لَقِينَا أَحَدًا مَن أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي القَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ دَاخِلًا المَسجِدَ، فَاكتَنَفتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَن يَمِينِهِ، وَالآخَرُ عَن شِمَالِهِ، فَظَنَنتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الكَلَامَ إِلَيَّ.

فَقُلتُ: أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، إِنَّهُ قَد ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقرَءُونَ القُرآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ العِلمَ، وَذَكَرَ مِن شَأنِهِم، وَأَنَّهُم يَزعُمُونَ أَن لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمرَ أُنُفٌ».

ومعنىٰ قولهم: الأمر أنف؛ أي: أن الله لا يعلمه قبل حدوثه، يعني: أن علم الله فيه مستأنف وجديد، فلا يعلم الله قبل حدوث الأشياء شيئًا حتىٰ تحدث وتكون، فهذا القول حدث منذ زمن الصحابة، فردَّ عليهم ابنُ عمر رضي الله عنهما بذكر حديث جبريل الطويل.

النكتة الثامنة: قوله: «وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أفعَالهم».

نحن نقول: القدر أربع مراتب: العلم، والكتابة، والمشيئة، وخلق أفعال العباد.

وسياق كلام المصنِّف هنا في بيان المرتبتين الثالثة والرابعة، فقدَّم مرتبة المشيئة، وهذا الكلام متعلِّق بمرتبة خلق أفعال العباد، أجاب فيه علىٰ إشكال؛ وهو أنه قد يقول قائل: إذا كانت أفعالُ العباد مخلوقة لله، فلِمَ يُحاسبهم عليها، وأين التكليف، وكيف تقولون: إنه لا جَبر للعباد؟!

فأجاب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هذا بهذه الجملة فقال: «وَاللهُ خَالِقُهُم، وَخَالِقُ

قُدرَتِهُم وَإِرَادَتِهُم»؛ يعني: أن الذي أعطىٰ العبد القدرة والإرادة والاختيار هو الله، فإذا أتىٰ العبد بفعلٍ بقدرته واختياره، يكون الخالق لفعله في الحقيقة هو الله، فمعنىٰ قولنا: إنَّ الله ﷻ خلَق الفِعل؛ أي: هو الذي أعطىٰ العبد القدرة والإرادة والاختيار، وليس هناك جبر علىٰ الفعل، فالعبد هو الذي يفعل الفعل حقيقةً، كما قال المصنِّف: «وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أفعَالِهِم»؛ لأنه ﷻ هو الذي خلقهم، وهو الذي خلق قدرتهم، وهو الذي خلق إرادتهم، فأنت لك إرادة؛ لكن من الذي أعطاك هذه الإرادة، ومن الذي خلق لك هذه الإرادة، ومَن الذي خلقك وأعطاك هذه القدرة علىٰ الفعل؟!

ففي الحقيقة الله -تبارك وتعالىٰ- هو الذي خلق هذا الأمر بخلقك، وأنت الفاعل أيضًا حقيقة؛ لأنك تفعله بقدرتك وبقوتك وبإرادتك وبمشيئتك وباختيارك التي أعطاك الله إيَّاها، ولذلك نقول: ليس هناك جبر، ولا هناك حجَّةٌ أن يقول الإنسان: إذا كان الله ﷻ هو الذي خلق أفعال العباد، فلِمَ يحاسبهم؟

فنقول: معنىٰ خلق الله لأفعال العباد؛ أي: أنه هو الذي خلقهم، وهو الذي خلق قدرتهم، وهو الذي أعطاهم الإرادة، وهو الذي أعطاهم المشيئة، كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، فإذا شاء الله ﷻ أن يعطيك هذه القدرة وهذه الإرادة؛ جاءت مشيئتك وجاءت قدرتك؛ ووقع منك الفعل، ولذلك فأنت الذي توصف بأنك مؤمن، وأنك طائع، وأنك تقي، وأنك برٌّ، فإذا خالف الإنسان الطاعة، وسلك سبيل المعصية؛ قيل عنه: كافر، أو عاصٍ، أو فاجر، أو فاسق، فيوصف هو بهذا

الفعل الذي قام به، فلولا أن الفعل فعلُه والعمل عملُه والقدرة قدرتُه والإرادة إرادتُه؛ كيف يُنسب إليه؟!

ولذلك إثبات مراتب القدر ليس فيه ما يقتضي أن الخلق مجبورون، إنما معناه أن الله خالقُهم، وخالقُ قدرتهم وإرادتهم، فهو الذي أعطاهم الإرادة والمشيئة، والإمام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوَّته العلمية استطاع أن يُقرِّر المسألة بدليلها، ويرد علىٰ الشبهة في عبارة واحدة، فقال: «وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أفعَالِهِم. وَالعَبدُ هُوَ: المُؤمِنُ، وَالكَافِرُ، وَالبَرُّ، وَالفَاجِرُ، وَالمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. وِلِلعِبَادِ قُدرَةٌ عَلَىٰ أَعمَالِهِم، وَلَهُم إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُم وَخَالِقُ قُدرَتِهِم وَإِرَادَتِهِم».

فما فعله العباد إنما فعلوه باختيارهم، لكن لا يخرجون فيه عن إرادة الله وعن مشيئة الله؛ لأنه هو الذي شاء لهم ذلك، وجعل لهم هذه القدرة علىٰ هذا الفعل.

النكتة التاسعة: قوله: «وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ».

قلت: قد جاء في ذلك حديث مرفوعٌ إلىٰ الرسول ﷺ؛ وذلك أن القدرية لمَّا قالوا: إن العبد يخلق فعلَه بنفسه، صاروا كأنهم جعلوا خالقًا وفاعلًا في الكون غير الله، لذلك كانوا مجوس هذه الأمَّة.

النكتة العاشرة: قوله: «وَيُخرِجُونَ عَن أَفعَالِ اللهِ وَأَحكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا»؛ يعني: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الحكيم العليم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]،

ولكن فعله بمقتضىٰ حكمته وعدله ورحمته، خلافًا للأشاعرة والمعتزلة الذين يقولون بنفي صفة الحكمة التي ترجع إلىٰ الله، والمنحرفين فيها[(١)] ودائمًا يقولون: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، فيجوِّزون علىٰ الله أن يفعل أمورًا بلا حكمة، فالمصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردُّ عليهم، ولذلك ألَّف ابنُ قيِّم الجوزية كتابه العظيم «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل»[(٢)]؛ يعني: الحكمة.

وقد أطال العلَّامة ابنُ الوزير اليماني (ت٨٤٠هـ) في كتابه: «إيثار الحق علىٰ الخلق»[(٣)]، أطال الردَّ علىٰ الزيدية القائلين بنفي الحكمة، ومعهم الأشاعرة الذين ينفون الحكمة[(٤)]، والمعتزلة[(٥)]، واستدلالهم بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (٨/ ٣٧-٣٩، ٨٨-٨٩) (١٢/ ١٣٤) (١٧/ ١٩٨-٢٠٣).
قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص ١٨٦- دار المعرفة): «قولُ المعتزلة الذين أثبتوا حكمةً لا ترجع إلىٰ الفاعل، وأوجبوا رعاية مصالح شبَّهوا فيها الخالق بالمخلوق، وجعلوا له بعقولهم شريعةً أوجبوا عليه فيها وحرَّموا وحجروا عليه». اهـ

(٢) انظر: (٣/ ١٠٢٥-١٣١٣، الصميعي).

(٣) انظر: (ص ١٨١-٢٢٧).

(٤) قال في «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٣٧- ٣٨): «من نفىٰ الحكمة وقالوا: هذا يفضي إلىٰ الحاجة، فقالوا: يفعل ما يشاء، لا لحكمة، فأثبتوا له القدرة والمشيئة، وأنه يفعل ما يشاء، وهذا تعظيم، ونفوا الحكمة لظنِّهم أنها تستلزم الحاجة، وهذا قولُ الأشعريِّ وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلىٰ وابن الزاغوني والجُويني والباجي ونحوهم، وهذا القول في الأصل قولُ جهم بن صفوان، ومن اتَّبعه من المجبرة». اهـ

(٥) حيث أثبتوا حكمة ترجع للمخلوق، لا إلىٰ الخالق، فأثبتوا أنه سبحانه يخلق ويأمر لحكمة
=

يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾.

فمن أنفس مباحث هذا الكتاب ما تضمَّنه من تقرير كمال حكمة الله تعالىٰ، وأنَّ الله حكيم عليم، وأنَّ أفعاله تقع بمقتضىٰ حكمته وعدله، وأنه لا يجوز أن يقال: إنَّ أفعاله ﷻ ليس لها علَّة، وأنها تصدر عنه -تبارك وتعالىٰ- لا لحكمة.

والمقصود أن أهل السنَّة والجماعة يعتقدون أنَّ كل الأمور التي تصدر عن الله تعالىٰ وأحكامه وتشريعاته كلها علىٰ مقتضىٰ الحكمة والتعليل والعدل، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبَّه إلىٰ المسألة اللازمة لموضوع القضاء والقدر، وهي ردٌّ علىٰ الذين ينفون الحكمة عن أفعال الله ﷻ وعن قدر الله والتعليل، فردَّ عليهم مذهبهم إشارةً بهذه العبارة.

* * *

=

تعود إلىٰ العباد، وهو نفعُهم والإحسان إليهم، فلم يخلق ولم يأمر إلَّا لذلك؛ وهذا قولُ المعتزلة. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٣٨).

فَصلٌ

وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ؛ قَولُ القَلبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ القَلبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنقُصُ بِالمَعصِيَةِ.

وَهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهلَ القِبلَةِ بِمُطلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفعَلُهُ الخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨].

وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وَلَا يَسلُبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ اسمَ الإِيمَانِ بِالكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُهُ المُعتَزِلَةُ. بَلِ الفَاسِقُ يَدخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ؛ كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

وَقَد لَا يَدخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ المُطلَقِ؛ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

وَقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَسرِقُ السَّارِقُ

حِينَ يَسرِقُ وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَشرَبُ الخَمرَ حِينَ يَشرَبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَنتَهِبُ نَهبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرفَعُ النَّاسُ إِلَيهِ فِيهَا أَبصَارَهُم حِينَ يَنتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ»(١).

وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَو مُؤمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلَا يُعطَىٰ الاسمَ المُطلَقَ، وَلَا يُسلَبُ مُطلَقَ الاسمِ بِكَبِيرَتِهِ.

الشرح

أقول: ما يتعلَّق بمسائل الإيمان تكلَّمنا عنه أثناء شرح رسالة «شرح السنَّة» لأبي إبراهيم إسماعيل بن يحيىٰ المزني رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن نُنكِّت نكاتٍ وجيزة علىٰ كلام المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

النكتة الأولىٰ: قوله رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريف الإيمان أنه: «قَولٌ وَعَمَلٌ؛ قَولُ القَلبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ القَلبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ»، فجعل للقلب قولًا، وجعل للقلب عملًا، فقوله هو التصديق، وهو المعرفة، وعملُه هي أعمال القلوب؛ من الخوف والرجاء والتوكل والرهبة ونحو ذلك.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَجمَعَ السَّلَفُ أَنَّ الإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنقُصُ.

وَمَعنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ قَولُ القَلبِ وَعَمَلُ القَلبِ، ثُمَّ قَولُ اللِّسَانِ وَعَمَلُ الجَوَارِحِ.

فَأَمَّا قَولُ القَلبِ؛ فَهُوَ التَّصدِيقُ الجَازِمُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَيَدخُلُ فِيهِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، ثُمَّ النَّاسُ فِي هَذَا عَلَىٰ

(١) سبق تخريجه.

أَقسَامٍ: مِنهُم مَن صَدَّقَ بِهِ جُملَةً وَلَم يَعرِف التَّفصِيلَ، وَمِنهُم مَن صَدَّقَ جُملَةً وَتَفصِيلًا، ثُمَّ مِنهُم مَن يَدُومُ استِحضَارُهُ وَذِكرُهُ لِهَذَا التَّصدِيقِ، وَمِنهُم مَن يَغفُلُ عَنهُ وَيَذهَلُ، وَمِنهُم مَن استَبصَرَ فِيهِ بِمَا قَذَفَ اللهُ فِي قَلبِهِ مِن النُّورِ وَالإِيمَانِ، وَمِنهُم مَن جَزَمَ بِهِ لِدَلِيلٍ قَد تَعتَرِضُ فِيهِ شُبهَةٌ أَو تَقلِيدٌ جَازِمٌ.

وَهَذَا التَّصدِيقُ يَتبَعُهُ عَمَلُ القَلبِ؛ وَهُوَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعظِيمُ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعزِيرُ الرَّسُولِ وَتَوقِيرُهُ، وَخَشيَةُ اللهِ، وَالإِنَابَةُ إِلَيهِ، وَالإِخلَاصُ لَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيهِ، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحوَالِ؛ فَهَذِهِ الأَعمَالُ القَلبِيَّةُ كُلُّهَا مِنَ الإِيمَانِ، وَهِيَ مِمَّا يُوجِبُهَا التَّصدِيقُ وَالِاعتِقَادُ إِيجَابَ العِلَّةِ لِلمَعلُولِ.

وَيَتبَعُ الِاعتِقَادَ قَولُ اللِّسَانِ، وَيَتبَعُ عَمَلَ القَلبِ الجَوَارِحُ مِن الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّومِ وَالحَجِّ وَنَحوِ ذَلِكَ»[1]. اهـ

النكتة الثانية: قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وَهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهلَ القِبلَةِ بِمُطلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفعَلُهُ الخَوَارِجُ»**.

أقول: الخوارج يكفِّرون أصحاب المعاصي؛ لأنهم يرون أن الإيمان كلٌّ؛ شيء واحد لا يقبل التجزِّي، فعندهم أن المعصية نقصٌ في الإيمان، فإذا نقص الإيمان؛ ذهب الإيمان؛ لأنه كلٌّ لا يقبل التجزِّي، والعجيب أن المرجئة أيضًا يرون أنَّ الإيمان كلٌّ لا يقبل التجزِّي، ولذلك هم أحسن من الخوارج؛ لأنهم

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٧٢)، مع ملاحظة أن القَولَ المُطلَقَ وَالعَمَلَ المُطلَقَ فِي كَلَامِ السَّلَفِ يَتَنَاوَلُ قَولَ القَلبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلَ القَلبِ وَالجَوَارِحِ. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٥٠٥).

أخرجوا العمل عن الإيمان حتىٰ يخرجوا عن كلام الخوارج، فلا يلزمهم من نقص الإيمان بالمعصية ذهابُ وزوال الإيمان، فقالوا: العمل ليس من الإيمان، وقالوا: الإيمان أهلُه في أصله سواء، ومَن آمن من الناس اليوم أو غدًا؛ فإن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ورسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، يعني: إيمانُنا وإيمانُ هؤلاء سواءٌ، علىٰ حدِّ تعبير الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قال: «الإِيمَانُ وَاحِدٌ وَأَهلُهُ فِي أَصلِهِ سَوَاءٌ»(١).

فالمرجئة مع قولهم إن الإيمان عندهم لا يقبل التجزِّي، انفصلوا عن كلام الخوارج بإخراج العمل، فقالوا: الإيمان هو المعرفة والتصديق، يعني: قول شهادة (أن لا إله إلا الله) مع التصديق، فانفصلوا عن كلام الخوارج الذين قالوا: الإيمان قول وعمل واعتقاد وهو لا يقبل التجزِّي، فمن أنقص من الإيمان شيئًا بعمل معصية؛ نقص إيمانه فزال كلُّه، وجاء الكرَّامية فاخترعوا قولًا لم يُسبقوا إليه، فقالوا: الإيمان فقط قول اللسان، ولم يُدخلوا تصديق القلب، ولم يدخلوا العمل، وذلك فرارًا من تبعُّض الإيمان وتعدُّده، أمَّا الجهمية فقالوا: الإيمان هو مجرَّد المعرفة، فلو قلت الكفر أو فعلت الكفر أو فعلت أيَّ شيء من الأمور الكفرية، والمعرفة موجودة في قلبك؛ فأنت مؤمن! فعلىٰ كلامهم إبليس مؤمن؛ لأنه يعرف الله؛ لأنه قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الحجر:٣٦].

والعجيب أن بعض المتأخِّرين في بعض البرامج الإعلامية كان يقول: إن إبليس مؤمن! وهذا القائل عنده عقيدة الجهمية من حيث لا يشعر؛ لأنه يظن أن

---

(١) «عقيدة الطحاوي بشرح ابن أبي العز الحنفي» (ص٣٣٢- دار السلام).

الإيمان هو مجرَّد معرفة الله، يقول: إن الله ذكر أن إبليس يقول: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، يقول: انظر إبليس يقول: ربِّ! يعني هو يعرف الله، إذن هو مؤمن!

النُّكتة الثالثة: قوله: «بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي»: يعني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الأخوَّة الإيمانية ثابتةٌ مع المعاصي، كالسرقة والزنا وشرب الخمر والسباب والشتم والقتل، فنحن نقول: نحب العاصي لإيمانه، ونكرهه لمعصيته، وهاهنا سؤال: هل الأخوَّة الإيمانية ثابتةٌ مع البدع؟ فهل يقال عن صاحب البدعة: نحبُّه لإيمانه؛ لأن بدعته غير مكفِّرة، ونكرهه لبدعته، أو نبغضه ونبتعد عنه؟

والجواب: يقول المزنيُّ (ت٢٦٤هـ) صاحبُ الإمام الشافعيِّ -رحمهما الله-، في «شرح السنَّة»[1] له: «وَالإِمسَاكُ عَن تَكفِيرِ أَهلِ القِبلَةِ، وَالبَرَاءَةِ مِنهُم»؛ يعني: نُمسك عن تكفير أهل القبلة، ونُمسك عن البراءة منهم «فِيمَا أَحدَثُوا»؛ يعني: من المعاصي والذنوب، «مَا لَم يَبتَدِعُوا ضَلَالًا، فَمَنِ ابتَدَعَ مِنهُم ضَلَالًا، كَانَ عَلَىٰ أَهلِ القِبلَةِ خَارِجًا، وَمِنَ الدِّينِ مَارِقًا، وَيُتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ بِالبَرَاءَةِ مِنهُ، ويُهجَرُ ويُحتَقَرُ، وَتُجتَنَبُ غُدَّتُهُ، فَهِيَ أَعدَىٰ مِن غُدَّةِ الجَرَبِ».

وهذا يدلُّ عليه مفهومُ كلام شيخ الإسلام، والعلماء في كلامهم لمَّا يتكلمون، يريدون في الغالب مفهومه، وإلَّا لماذا خصَّ شيخ الإسلام المعاصي بالذكر؟ فلو أراد إدخال البدعة؛ لقال: والأخوَّة الإيمانية ثابتةٌ مع الفسق؛ حتىٰ يدخل فيه فسق المعصية وفسق البدعة، لكن لمَّا خصَّص المعاصي؛ فهمنا أنه

(١) (ص ٨٤-٨٥)، مكتبة الغرباء الأثرية، تحقيق: جمال عزُّون، الطبعة الأولىٰ.

يريد أن يقول: إنه لا توجد أخوَّة إيمانية ثابتةٌ بيننا وبين أهل البدع، فما لهم منَّا إلا البراءة منهم والهجر لهم؛ لأن خطرهم كبير.

ولذلك لمَّا عدَّد ابنُ قيِّم الجوزية العقبات التي يطلب فيها الشيطان ابن آدم؛ قال العقبة الأولىٰ: الشرك، والعقبة الثانية: البدعة، والعقبة الثالثة: الكبائر، والعقبة الرابعة: الصغائر، والعقبة الخامسة: شغله بالمباحات التي لا حرج علىٰ فاعلها، عَنِ الِاستِكثَارِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَعَنِ الِاجتِهَادِ فِي التَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِ، والعقبة السادسة: ترك المستحبَّات، وشغله بالأعمال المرجوحة المفضولة عن الأعمال الفاضلة الراجحة. والعقبة السابعة: وَهِيَ عُقبَةُ تَسلِيطِ جُندِهِ عَلَيهِ بِأَنوَاعِ الأَذَىٰ، بِاليَدِ وَاللِّسَانِ وَالقَلبِ، عَلَىٰ حَسَبِ مَرتَبَتِهِ فِي الخَيرِ[1].

فجعل البدعة تلو الشرك، وفرَّق بينها وبين المعاصي الكبائر والصغائر، فلمَّا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي». دلَّ مفهوم كلامه أنَّ غير المعاصي لا يثبت معها الأخوَّة الإيمانية، وهذا المفهوم كان منطوقًا في كلام المزنيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والملاحظ أن هناك تشابهًا كبيرًا في الترتيب بين «الواسطية» و«شرح السنَّة» للمزنيِّ.

فيقول المزنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالإِمسَاكُ عَن تَكفِيرِ أَهلِ القِبلَةِ، وَالبَرَاءَةِ مِنهُم فِيمَا أَحدَثُوا مَا لَم يَبتَدِعُوا ضَلَالًا، فَمَنِ ابتَدَعَ مِنهُم ضَلَالًا، كَانَ عَلَىٰ أَهلِ القِبلَةِ خَارِجًا، وَمِنَ الدِّينِ مَارِقًا، وَيُتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالبَرَاءَةِ مِنهُ، وَيُهجَرُ وَيُحتَقَرُ، وَتُجتَنَبُ غُدَّتُهُ، فَهِيَ أَعدَىٰ مِن غُدَّةِ الجَرَبِ».

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٣٧-٢٣٨، الكتاب العربي).

وهذا النعت الذي نعت به أهل البدع مأثور عن السلف؛ فعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لَا تُجَالِسُوا أَهلَ الأَهوَاءِ؛ فَإِنَّ لَهُم عُرَّةٌ كَعُرَّةِ الجَرَبِ»[١]. والعُرَّة: داءٌ يأخذ الإبل، وهو الجرب.

مع ملاحظة عدم الأخوة الإيمانية مع أهل البدع، إنما هو في حق مَنِ ابتَدَعَ مِنهُم ضَلَالًا، فكَانَ عَلَىٰ أَهلِ القِبلَةِ خَارِجًا، وَمِنَ الدِّينِ مَارِقًا، كما قال المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

النكتة الرابعة: استعمل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة الإيمان المطلق، ولدينا عبارتان: الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان؛ فالمراد بمطلق الإيمان يعني أن أهل الإسلام كلَّهم يوصفون بالإيمان، فهو مطلق إيمان، فكلُّ واحد من أهل الإسلام فيه إيمان، أمَّا الإيمان المطلق فيعني الإيمان التامَّ الذي يحصل منه فعلُ الطاعات وترك المعصيات، والخوف من الله تَعَالَىٰ، فمُطلق الإيمان موجودٌ في كلِّ مسلم، لكن أن تقول عن شخص أنه مؤمن؛ يعني مؤمنًا إيمانًا كاملًا؛ فهذا لا يُطلق علىٰ أيِّ مسلم، إلَّا إذا كان ظاهر حاله ملازمة التقوىٰ؛ بفعل الطاعات وترك المعصيات، فمُطلق الإيمان هو الذي نقول عنه: أصل الإيمان، والإيمان المطلق هو الإيمان التامُّ الكامل، والمسلم يقول: أنا مؤمنٌ؛ يعني: أنا من ضمن المؤمنين إن شاء الله، فهو يقوله ويزيد: إن شاء الله.

---

(١) أخرجه ابنُ بطَّة في «الإبانة الكبرىٰ» (٢/ ٤٤١، رقم ٣٨٢)، وقوَّام السنَّة الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٩٥، برقم ٤٨٠).

وأخرجه الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٤/ ٢٢٩، رقم ١٠٤٥) عن طلحة بن عمرو رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كما قال الإمام أحمد: «إِنَّما نُصيِّرُ الِاستِثناء عَلَىٰ العَمَلِ؛ لِأَنَّ القَولَ قَد جِئنَا بِهِ»[(١)].

وفي رواية: «قَد جِئنَا بِالقَولِ، وَنَخشَىٰ أَن نكُونَ قَد فَرَّطنَا فِي العَمَلِ، فَيُعجِبُنِي أَن نَستَثنِيَ فِي الإِيمَانِ، نَقُولُ: أَنَا مُؤمِنٌ إِن شَاءَ اللهُ»[(٢)].

وفي رواية أنه قيل للإمام أحمد: «كَيفَ يَا أَبَا عَبدِ اللهِ؟ قَالَ: قُل لَهُم: زَعَمتُم أَنَّ الإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ، فَالقَولُ قَد أَتَيتُم بِهِ، وَالعَمَلُ فَلَم تَأتُوا بِهِ، فَهَذَا الِاستِثنَاءُ لِهَذَا العَمَلِ، فَقِيلَ لَهُ: فَيُستَثنَىٰ فِي الإِيمَانِ؟ قَالَ: نَعَم، أَقُولُ: أَنَا مُؤمِنٌ إِن شَاءَ اللهُ، أَستَثنِي عَلَىٰ اليَقِينِ، لَا عَلَىٰ الشَّكِّ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، فَقَد عَلِمَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أَنَّهُم دَاخِلُونَ المَسجِدَ الحَرَام»[(٣)].

يقول: هو لا يضمن ذلك، فلذا هو يقول: إن شاء الله، يعني: الله ﷻ يُعيننا إن شاء الله علىٰ فعل الطاعات وترك المعصيات.

فمن نقص إيمانُه بفعل المعاصي؛ هل نقول عنه: مؤمن مطلق إيمان، أو نقول: ناقص إيمان، أو نقول: فيه إيمان، مثلما قال الرسول ﷺ في ذاك الصحابيِّ

(١) «السنَّة» لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٣٥- الرياشي).

(٢) «السنَّة» للخلَّال (١٠٦٥- الراية).

(٣) «السنَّة» للخلَّال (٣/ ٥٩٦، رقم ١٠٥٤). وانظر: «التبصير في معالم الدين» للطبري (ص ١٩٢-١٩٣، الشبل).

الذي أُتي به وكان كثيرًا ما يؤتىٰ به وهو يشرب الخمر فسبَّه الصحابة، فقال: «لَا تَلعَنُوهُ؛ فَوَاللهِ مَا عَلِمتُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[1]. فأثبت له أصل الإيمان.

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب مَا يُكرَهُ مِن لَعنِ شَارِبِ الخَمرِ، وَإِنَّهُ لَيسَ بِخَارِجٍ مِنَ المِلَّةِ، حديث رقم (٦٧٨٠)، عن عمر ﷺ.

فَصلٌ

وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِم وَأَلسِنَتِهِم لأَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

وَطَاعَة النَّبِيِّ ﷺ فِي قَولِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهُ لَو أَنَّ أَحَدَكُم أَنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

وَيَقبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجمَاعُ مِن فَضَائِلِهِم وَمَرَاتِبِهِم.

وَيُفَضِّلُونَ مَن أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ -وَهُوَ صُلحُ الحُدَيبِيَةِ- وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَن أَنفَقَ مِن بَعدُ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنصَارِ، وَيُؤمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهلِ بَدرٍ -وَكَانُوا ثَلَثَمِائَةٍ وَبِضعَةَ عَشَرَ-: «اعمَلُوا مَا شِئتُم؛ فَقَد غَفَرتُ لَكُم»(٢).

وَبِأَنَّهُ لَا يَدخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَل لَقَد

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبيِّ ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، حديث رقم (٣٦٧٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، حديث رقم (٢٥٤٠)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الجاسوس، وقول الله تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، حديث رقم (٣٠٠٧)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم..، حديث رقم (٢٤٩٤)، عن عليٍّ رضي الله عنه.

رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنهُ، وَكَانُوا أَكثَرَ مِن أَلفٍ وَأَربَعمِائَة.

وَيَشهَدُونَ بِالجَنَّةِ لِمَن شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَالعَشَرَةِ(١)، وَثَابِتِ بنِ قَيسِ ابنِ شَمَّاسٍ(٢)، وَغَيرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ(٣).

---

(١) حديث الشهادة للعشرة بالجنَّة: أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٩ تحت رقم ١٦٧٥)، والترمذي في أبواب المناقب، بَابُ مَنَاقِبِ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ عَوفٍ رضي الله عنه، حديث رقم (٣٧٤٧)، عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. ولفظه: عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ عَوفٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبُو بَكرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَعُثمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَطَلحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَوفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بنُ زَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيدَةَ بنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ». وصحَّحه الألبانيُّ في التعليق علىٰ «المشكاة» (٦١١٨).

(٢) حديث الشهادة لثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه بالجنَّة: أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٦١٣)، وكتاب التفسير، باب ﴿لَا تَرفَعُوٓاْ أَصوَٰتَكُم فَوقَ صَوتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات:٢] الآيَةَ، حديث رقم (٤٨٤٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب مَخَافَةِ المُؤمِنِ أَن يَحبَطَ عَمَلُهُ، حديث رقم (١١٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
ولفظه عند مسلم: عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ: أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرفَعُوٓاْ أَصوَٰتَكُم فَوقَ صَوتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ، جَلَسَ ثَابِتُ بنُ قَيسٍ فِي بَيتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِن أَهلِ النَّارِ، وَاحتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَعدَ بنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا أَبَا عَمرٍو، مَا شَأنُ ثَابِتٍ؟ اشتَكَىٰ؟» قَالَ سَعدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمتُ لَهُ بِشَكوَىٰ، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعدٌ، فَذَكَرَ لَهُ قَولَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنزِلَت هَذِهِ الآيَةُ، وَلَقَد عَلِمتُم أَنِّي مِن أَرفَعِكُم صَوتًا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَنَا مِن أَهلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَل هُوَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ».

(٣) ومنهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه: فقد أخرج البخاري في كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه، حديث رقم (٣٨١٢)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب مِن فَضَائِلِ عَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٨٣)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. ولفظه عند
=

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقلُ عَن أَمِيرِ المُؤمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ وَغَيرِهِ مِن أَنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ[1]. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ ﵃؛ كَمَا دَلَّت عَلَيهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ تَقدِيمِ عُثمَانَ فِي البَيعَةِ، مَعَ أَنَّ بَعضَ أَهلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اختَلَفُوا فِي عُثمَانَ وَعَلِيٍّ ﵄ بَعدَ اتِّفَاقِهِم عَلَىٰ تَقدِيمِ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ أَيُّهُمَا أَفضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَومٌ عُثمَانَ وَسَكَتُوا، أَو رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَومٌ عَلِيًّا، وَقَومٌ تَوَقَّفُوا. لَكِنِ استَقَرَّ أَمرُ أَهلِ السُّنَّةِ عَلَىٰ تَقدِيمِ عُثمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ.

وَإِن كَانَت هَذِه المَسأَلَةُ -مَسأَلَةُ عُثمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيسَت مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِندَ جُمهُورِ أَهلِ السُّنَّةِ. لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسأَلَةُ الخِلَافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُم يُؤمِنُونَ أَنَّ الخَلِيفَةَ بَعدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ. وَمَن طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِن هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِن حِمَارِ أَهلِهِ.

وَيُحِبُّونَ أَهلَ بَيتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَتَوَلَّونَهُم، وَيَحفَظُونَ فِيهِم وَصِيَّةَ

=

مسلم: عَن عَامِرِ بنِ سَعدٍ، قَالَ: سَمِعتُ أَبِي يَقُولُ: «مَا سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِحَيٍّ يَمشِي: إِنَّهُ فِي الجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ».

(١) أخرج البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبيِّ ﷺ، باب قَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَو كُنتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، حديث رقم (٣٦٧١)، عن عليٍّ ﵁. ولفظه: عَن مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ، قَالَ: «قُلتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيرٌ بَعدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكرٍ، قُلتُ: ثُمَّ مَن؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَن يَقُولَ: عُثمَانُ، قُلتُ: ثُمَّ أَنتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ المُسلِمِينَ».

قال شيخ الإسلام ﵀ كما في «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (١/ ٣٩٨): «ورُوي عنه من أكثر من ثمانين وجهًا أنه قال: خيرُ هذه الأمَّة بعد نبيِّها: أبو بكر، ثمَّ عمر».

رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ حَيثُ قَالَ يَومَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهلِ بَيتِي»(١).

وَقَالَ أَيضًا لِلعَبَّاسِ عَمِّهِ -وَقَدِ اشتَكَىٰ إِلَيهِ أَنَّ بَعضَ قُرَيشٍ يَجفُو بَنِي هَاشِمٍ- فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤمِنُونَ حَتَّىٰ يُحِبُّوكُم للهِ وَلِقَرَابَتِي»(٢).

وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصطَفَىٰ بَنِي إِسمَاعِيلَ، وَاصطَفَىٰ مِن بَنِي إِسمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصطَفَىٰ مِن كِنَانَةَ قُرَيشًا، وَاصطَفَىٰ مِن قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصطَفَانِي مِن بَنِي هَاشِمٍ»(٣).

الشرح

هذا الفصل أو المقطع من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في عقيدة أهل السنَّة والجماعة في الصحابة، وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ الحمدُ لله هو من الأمور المتقرِّرة، وأنبِّه علىٰ بعض القضايا فقط:

النكتة الأولىٰ: قولُه: «وَإِن كَانَت هَذِه المَسأَلَةُ -مَسأَلَةُ عُثمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيسَت

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب مِن فَضَائِلِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٠٨)، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٧)، والترمذي في أبواب المناقب، باب مَنَاقِبِ أَبِي الفَضلِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ العَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه، حديث رقم (٣٧٥٨). وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح». وضعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الجامع الصغير» (٥٠٣٣). لكن ما ورد في الأمر بمحبَّة آل بيت النبيِّ ﷺ وموالاتهم، دليل علىٰ أن ذلك من الإيمان، فيثبت معنىٰ الحديث بذلك، والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فَضلِ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَسلِيمِ الحَجَرِ عَلَيهِ قَبلَ النُّبُوَّةِ، حديث رقم (٢٢٧٦)، عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِندَ جُمهُورِ أَهلِ السُّنَّةِ. لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسأَلَةُ الخِلَافَةِ».

أقول: هذا فيه بيانٌ أن مسائل العقيدة علىٰ أنواع؛ منها مسائل وقع الخلاف فيها بين أهل السنَّة، فلا يُضلَّل المخالِف فيها، ومنها مسائلُ يُضلَّل المخالِف فيها؛ لأن الخلاف فيها بين أهل السنَّة غير واقع، وعليه فإن شيخ الإسلام كأنه يُشير بذلك أن من مسائل العقيدة ما دخل فيها نوعٌ من الاجتهاد.

النكتة الثانية: قولُه: «فَهُوَ أَضَلُّ مِن حِمَارِ أَهلِهِ».

أقول: هذا فيه أنَّ العالم إذا تبيَّن المسألة، وأنها محلُّ اتفاق ومحلُّ إجماع، وأنها من المسائل العلمية التي لا ينبغي للإنسان أن يُخالف فيها؛ فله أن يُشنِّع في العبارة، مثلما حدث مع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لمَّا حضر عنده مجموعة من الشباب، فقام يصلِّي وثوبُه علىٰ المِشجب، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: تُصَلِّي فِي إِزَارٍ وَاحِدٍ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا صَنَعتُ ذَلِكَ لِيَرَانِي أَحمَقُ مِثلُكَ، وَأَيُّنَا كَانَ لَهُ ثَوبَانِ عَلَىٰ عَهدِ النَّبِيِّ ﷺ!»[1].

فالعالم أحيانًا إذا كانت المسألة ظاهرة، والأمر ظاهرًا قد يستعمل مثل هذه العبارة الشديدة مع المخالف، وله فيها عذر.

النكتة الثالثة: آل بيت الرسول ﷺ لهم محبَّة خاصَّة دون عموم المسلمين، فإذا كان الرجل من آل البيت طالب علم فنحن نحبُّه؛ لأنه مسلم، ونحبُّه لأنه من آل البيت، ونحبُّه لأنه طالب علم، فإذا كان جارك فتحبه؛ لأنه مسلم، وتحبه لأنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب: عَقدِ الإِزَارِ عَلَىٰ القَفَا فِي الصَّلَاةِ، حديث رقم (٣٥٢).

من آل البيت، وتحبُّه لأنه طالب علم، وتحبه لأنه جارك، فإذا ما تزوَّجت منه، أو تزوَّج منك؛ فتحبه لأنه مسلم، وتحبُّه لأنه من آل البيت، وتحبُّه لأنه جارك، وتحبُّه لأنه طالب علم، وتحبُّه لأنه بينك وبينه رحم، ومحبَّة آل البيت من السنن الضائعة اليوم، والسبب أن أهل البدعة من الصوفية والشيعة جعلوا الرجل من أهل البيت إذا كان سنيًّا لا يُظهر هذا النسب؛ حتىٰ لا يصير شيء من إظهار المحبَّة نحوه، فيُظن به أنه متصوِّف أو أنه شيعيٌّ، فهذا من السنن الضائعة اليوم، والرسول ﷺ أمرنا بمحبَّة آل بيته، وعلَّمنا في التشهُّد أن نصلِّي ونسلِّم عليه وعلىٰ آل بيته، فمحبَّة آل البيت مأمور بها، لكن ينبغي أن تكون بدون غلوٍّ فيهم؛ فلا يظن أن فيهم العصمة، ولا نظن أنهم لديهم من العلم شيء خاص ليس لدىٰ غيرهم، ويبدو أن المقالة ظهرت في زمن عليٍّ.

فعن أَبِي جُحَيفَةَ ﷺ، قَالَ: قُلتُ لِعَلِيٍّ ﷺ: هَل عِندَكُم شَيءٌ مِنَ الوَحيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: «لَا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعلَمُهُ إِلَّا فَهمًا يُعطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قُلتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: **العَقلُ، وَفكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَلَّا يُقتَلَ مُسلِمٌ بِكَافِرٍ**»(١).

فنحن نحبُّ آل البيت، ونعتقد أن الله تعبَّدنا بهذا، ولكن بلا غلوٍّ، ولا نخصُّهم بشيء دون سائر المسلمين من العلم، ولا نزعم أن لهم صلةً بالله تختلف عن سائر المسلمين، نحن لا نفعل مثلما تفعل الشيعة، ولا نفعل مثلما يفعل أهلُ الغلوِّ، إنما نحبُّهم ونجلُّهم، ونعتقد أنهم من سلالة الرسول ﷺ، فنتقرَّب إلىٰ الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: فكاك الأسير، حديث رقم (٣٠٤٧).

بمراعاتهم، ونتقرَّب إلىٰ الله بالإهداء إليهم، خاصَّة وأن الصدقة المفروضة محرَّمة عليهم، فنتقرَّب بأن نُهديهم، إذا رأينا إنسانًا منهم ضعيف الحال فلنهد له؛ لأن الصدقة عليه لا تجوز، فنقرِّب ونقدِّم له أشياء من باب هذه المحبَّة، ونهتمُّ به، وإذا أظهر شيئًا من الجهل فلنُحاول أن نترفَّق في تعليمه والاهتمام بأمره وبشأنه.

❊ ❊ ❊

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةَ ﵂ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ المَنْزِلَةُ العَالِيَةُ. وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ ﵂، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ البَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ المَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، وَأَنَّ المُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبيِّ ﷺ، باب فضل عائشة ﵂، حديث رقم (٣٧٦٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة ﵂، حديث رقم (٢٤٤٦)، عن أنس ابن مالك ﵁.

تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفضَلَ مِن جبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعدَهُم، ثُمَّ إِذَا كَانَ قَد صَدَرَ مِن أَحَدِهِم ذَنبٌ؛ فَيَكُونُ قَد تَابَ مِنهُ، أَو أَتَىٰ بِحَسَنَاتٍ تَمحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضلِ سَابِقَتِهِ، أَو بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُم أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَو ابتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنيَا كُفِّرَ بِهِ عَنهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ؛ فَكَيفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجتَهِدِينَ: إن أَصَابُوا؛ فَلَهُم أَجرَانِ، وَإِن أَخطَئُوا؛ فَلَهُم أَجرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مَغفُورٌ.

ثُمَّ إِنَّ القَدرَ الَّذِي يُنكَرُ مِن فِعلِ بَعضِهِم قَلِيلٌ نَزرٌ مَغفُورٌ فِي جَنبِ فَضَائِلِ القَومِ وَمَحَاسِنِهِم؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالهِجرَةِ، وَالنُّصرَةِ، وَالعِلمِ النَّافِعِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَن نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَومِ بِعِلمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيهِم بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُم خَيرُ الخَلقِ بَعدَ الأَنبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثلُهُم، وَأَنَّهُمُ الصَّفوَةُ مِن قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيرُ الأُمَمِ وَأَكرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ.

الشرح

أقول: هذه الفقرة من كلام المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ نعلِّق على بعض المسائل فيها:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ خديجة بنت خويلد فقال: «أَمَّ أَكثَرِ أَولَادِهِ»؛ فهل للرسول ﷺ أولادٌ من غير خديجة؟

نعم؛ وُلد له من مارية أمِّ ولده إبراهيمُ، وثبت في فضل السيِّدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قولُه ﷺ: «أَبصَرتُهَا عَلَىٰ نَهرٍ مِن أَنهَارِ الجَنَّةِ، فِي بَيتٍ مِن قَصَبٍ، لَا لَغوَ

فِيهِ وَلَا نَصَبَ»[١]. وقد تزوَّج الرسول ﷺ خديجة بنت خويلد قبل البعثة، فلمَّا نبِّئ وجاءه جبريل عليه السلام بالوحي، جاءها ﷺ وهو خائف؛ خشي علىٰ نفسه -عليه الصلاة والسلام- أن يكون هذا الذي أتاه مسٌّ من الجنِّ، فقالت له مثبِّتةً له: «كَلَّا وَاللهِ مَا يُخزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحمِلُ الكَلَّ، وَتُكسِبُ المَعدُومَ، وَتَقرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ»[٢].

فذكرت من فضائل أخلاقه ﷺ ما ينفي أن يكون هذا الذي جاءه شيءٌ من السوء -عليه الصلاة والسلام-، وقد استدلَّ العلماء بكلمة السيِّدة خديجة رضي الله عنها هذه في الاستدلال علىٰ صدق نبوَّة الرسول ﷺ، علىٰ وفور عقلها -رضي الله عنها وأرضاها-، وقد كان الرسول ﷺ حافظًا لحقِّها حتىٰ بعد مماتها، حتىٰ كانت السيِّدة عائشة رضي الله عنها تغار منها وهي ميِّتة.

فروىٰ البخاريُّ ومسلم[٣]، عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا غِرتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِن

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٢٠٤٧)، والطبراني في «الأوسط» (٨١٥٣)، و«الكبير» (٢٣/ ٨)، والآجري في «الشريعة» (١٦٨٦- الدميجي)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤١٦): «فِيهِ مُجَالِدٌ، وَهَذَا مِمَّا مُدِحَ مِن حَدِيثِ مُجَالِدٍ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ». وحسَّن إسناده الألباني في «صحيح السيرة» (ص٩٤) وقال: «لبعضه شواهد في (الصحيح)».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بد الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ، حديث رقم (١٦٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: تَزوِيجِ النَّبِيِّ ﷺ خَدِيجَةَ وَفَضلِهَا رضي الله عنها، حديث رقم (٣٨١٨)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ المُؤمِنِينَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهَا-، حديث رقم (٢٤٣٥). واللفظ للبخاري.

نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا غِرتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيتُهَا، وَلَكِن كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكثِرُ ذِكرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعضَاءً، ثُمَّ يَبعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَم يَكُن فِي الدُّنيَا امرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ «إِنَّهَا كَانَت، وَكَانَت، وَكَانَ لِي مِنهَا وَلَدٌ».

قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيُمسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَينَ الصَّحَابَةِ».

أقول: كلامُ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المسألة هو الذي عليه أهل السنَّة والجماعة، وهو امتثالٌ للأمر النبويِّ لمَّا قال -عليه الصلاة والسلام-: «وَإِذَا ذُكِرَ أَصحَابِي فَأَمسِكُوا»[1].

وأقول: لو أنَّ أحد طلبة العلم يأخذ هذه العقيدة، فيجعل تحت كلِّ جزئيَّةٍ منها ورد فيها نصٌّ؛ آيةٌ أو حديثٌ فيورده؛ ويسمِّيها «الأدلَّة الجليَّة للعقيدة الواسطية»، فإن أغلب كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبنيٌّ علىٰ أحاديث في هذا الباب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأَنَّ لَهُم مِنَ الحَسَنَاتِ الَّتِي تَمحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيسَ لِمَن بَعدَهُم».

أقول: يكفيهم أنَّ منهم أهل بدر، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول لأهل بدر: «اعمَلُوا مَا شِئتُم فَإِنِّي قَد غَفَرتُ لَكُم»[2].

وهذا من الحسنات التي ليست لمن بعدهم، فأين بدرٌ ثانيةٌ بعد بدر؟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

ومن حسناتهم: صبرُهم على الأذى مع الرسول ﷺ ومثولهم بين يديه -عليه الصلاة والسلام-، وهذه من الحسنات التي اختصوا بها، والتي لا تكون لمن بعدهم، ولهم أمور اختصُّوا بها رضي الله عنهم لا يمكن لمن بعدهم أن يعمل مثل عملهم، فهذا وجه قول المصنف رحمه الله: «مَا لَيسَ لِمَن بَعدَهُم».

قوله: «أَو ابتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنيَا كُفِّرَ بِهِ عَنهُ».

أقول: البلاء قد يكون من الله عز وجل لشخص لا لنقص إيمانه ولا لمعصية، بل لرفعة درجته، كما قال ﷺ: «يُبتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِن كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِن كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنهُ، وَمَا يَزَالُ البَلاءُ بِالعَبدِ حَتَّىٰ يَمشِيَ عَلَىٰ ظَهرِ الأَرضِ لَيسَ عَلَيهِ خَطِيئَةٌ»(١).

أمَا ترون أن الأنبياء أشدُّ الناس بلاءً! فبيَّن الرسول ﷺ أن البلاء لا يكون في كلِّ مرة لنقصٍ في العبد، بل قد يكون لزيادة درجته، فإنه بصبره يرفع الله عز وجل درجته، وقد جاء في ذلك نصٌّ صريح عن الرسول ﷺ، وهو قوله ﷺ: «إِنَّ العَبدَ لَيَكُونُ لَهُ عِندَ اللهِ المَنزِلَةُ الرَّفِيعَةُ مَا يَنَالُهَا بِعَمَلٍ، فَمَا يَزَالُ اللهُ يَبتَلِيهِ بِمَا يَكرَهُ، حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٨ و٨٧ و١٢٨ و١٥٩ تحت رقم ١٤٨١ و١٤٩٤ و١٥٥٥ و١٦٠٧)، والترمذي في أبواب الزهد، باب مَا جَاءَ فِي الصَّبرِ عَلَىٰ البَلَاءِ، حديث رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصَّبرِ عَلَىٰ البَلَاءِ، حديث رقم (٤٠٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٣)، وحسَّنه محقِّقو «المسند».

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ (١٠/ ٤٨٢ و٤٨٧ رقم ٦٠٩٥ و٦١٠٠)، وابن حبَّان (٧/ ١٦٩ رقم ٢٩٠٨ =

فأحيانًا يكون نزول البلاء لرفعة الدرجات عند الله ﷻ، وتارة يكون نزول البلاء بالعبد كفَّارةً عن ذنوبه وسيِّئاته؛ كما قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ فِي الشَّوكَةِ يُشَاكُهَا»(١). فيكون الأجر مقابل السيِّئة، فيمحو الله به السيِّئات.

=

الإحسان)، والحاكم (١/ ٤٩٥ رقم ١٢٧٤)، عن أبي هريرة ﷺ. قال الحاكم: «إسناده صحيح». وردَّه الذهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ لشواهده، انظر: «الصحيحة» (٢٥٩٩).

(١) أخرجه أبو عوانة في «المستخرج علىٰ صحيح مسلم» (١٩/ ٣٨٨، رقم ١١٢٢٧)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٣٢، رقم ١٧٤٨)، من طريقين عن بقية بن الوليد: ثنا الزبيدي، عن الزهري، عن عائشة به. وفي طريق أبي عوانة أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، تكلَّم فيه بعضهم، وفي حديثه عن بقيَّة خاصَّة؛ ففي «لسان الميزان» (١/ ٥٧٥- البشائر الإسلامية): «قال محمد بن عوف الطائي: ليس عنده في حديث بقية أصل، هو فيها أكذبُ الخلق؛ إنما هي أحاديث وقعت إليه في ظهر قرطاس في أوَّلها: حَدَّثَنا يزيد بن عبد ربه، حَدَّثَنا بقية». وتابعه إبراهيم بن محمد بن عرق عن محمد بن مصفًّىٰ عند الطبراني، لكن إبراهيم هذا غير معتمد؛ قاله الذهبي كما في «مجمع الزوائد» للهيثمي (٢/ ٢٥٠- القدسي).

ولهذا الحديث طريق أخرىٰ عن الزبيدي، يرويه أبو أيوب الخبائري سليمان بن سلمة عن محمد بن حرب عنه؛ أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٣٢، رقم ١٧٤٨)، وأبو نعيم الأصبهاني في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٢٠٠ و٢٧٦- كسروي)، من طريقين عن أبي أَيُّوب الخبائري. وأبو أَيُّوب هذا تركه أبو حاتم، وكذَّبه ابنُ الجنيد، كما في «الميزان» (٢/ ٢٠٩). فالحديث غير ثابت بهذا اللفظ. والله أعلم.

وقد أخرجه البخاري في كتاب المرضىٰ، باب: ما جاء في كفارة المرض، حديث رقم (٥٦٤٠)، ومسلم: كتاب مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، حديث رقم (٢٥٧٢)، من طريق الزهري عن عروة عن عائشة ﷺ، ولفظه عند مسلم: عَن عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَا مِن مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا المُسلِمُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهَا عَنهُ، حَتَّىٰ الشَّوكَةِ يُشَاكُهَا».

وقد يكون هذا البلاء من المصائب التي يُقدِّرها الله ﷻ للعبد ليصبر، والصبر ثوابه عظيم؛ يقول الله ﷻ فيه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وما معنىٰ قوله: بغير حساب؟

أقول: الحسابُ: الحسنةُ بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلا الصبر، فإنه يُؤجر عليه بغير هذا الحساب، ولمَّا كان الصوم عبادة كلَّها صبرٌ؛ صبر عن الطعام، وصبر عن الشراب، وصبر عن الشهوة؛ كما قال النبيُّ: «كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشرُ أَمثَالِهَا إِلَىٰ سَبعمِائَة ضِعفٍ، قَالَ اللهُ ﷻ: إِلَّا الصَّومَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِه، يَدَعُ شَهوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِن أَجلِي»(١).

ودخل في عموم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقد يكون الابتلاءُ لأمورٍ أخرىٰ من الله ﷻ، كأن يكون الابتلاء للامتحان؛ قال الله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، فيبتلي الله ﷻ العبد بالبلاء، يُنزله به ليمتحن إيمانه، والبلاء له حِكَمٌ أخرىٰ غير هذه ذكرها أهل العلم(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام، حديث رقم (١١٥١)، عن أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب: هَل يَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ إِذَا شُتِمَ؟ حديث رقم (١٩٠٤)، عن أبي هريرة ﷺ، ولفظه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِهِ...»، الحديث.

(٢) انظر: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبيِّ ﷺ لابن عبَّاس» لابن رجب الحنبلي (٣/ ١٧٠ -١٧٢، مجموع الرسائل).

قوله: «عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُم خَيرُ الخَلقِ بَعدَ الأَنبِيَاءِ».

أقولُ: هذه العبارة هي الَّتي تُبيِّن أن (أل) في كلمة المزنيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «عقيدته»[1]: «فَهُوَ أَفضَلُ الخَلقِ وَأَخيَرُهُم بَعدَ النَّبِيِّ ﷺ». أنَّ المراد منها أن أبا بكر رضي الله عنه أفضلُ الخلق، يعني: في هذه الأمَّة -أمَّة الرسول ﷺ- أو أنه أفضلُ الخلق بعد الأنبياء، والرسول -عليه الصلاة والسلام- اختصَّه اللهُ تعالى بهؤلاء الصحابة الذين نقلوا لنا الدِّين، فصار الطعنُ في الصحابة؛ كأنَّه طعنٌ في الدِّين، إذ لا طريق لنا إلىٰ القرآن، وإلىٰ السنَّة، وإلىٰ فقه الكتاب والسنَّة، وإلىٰ العمل بما فيها من الأحكام إلا عن طريق الصحابة، فإذا أُسقِطَ الصحابة وطُعِنَ فيهم ذهب الدِّين، وكان في ذلك طعنٌ في الرسول ﷺ، إذ كيف يكون هؤلاء صحابته وهم متَّصفون بهذا الطعن!

ولذلك تجد أهل الفسق والزندقة إلىٰ يومنا هذا من طرقهم في الطعن في الدِّين الطعن في الصحابة، وعليه؛ فإن المسلم لا ينبغي له أن يستهين بهذا الباب، بل ينبغي أن ينتبه له غاية الانتباه!

* * *

---

(١) «شرح السنَّة» (ص٨٦).

وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ: التَّصدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَولِيَاءِ، وَمَا يُجرِي اللهُ عَلَىٰ أَيدِيهِم مِن خَوَارِقِ العَادَاتِ فِي أَنوَاعِ العُلُومِ وَالمُكَاشَفَاتِ، وَأَنوَاعِ القُدرَةِ وَالتَّأثِيرَاتِ، كَالمَأثُورِ عَن سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الكَهفِ وَغَيرِهَا، وَعَن صَدرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ.

الشرح

أقول: لدينا ثلاثة أشياء: المعجزة، والكرامة، والاستدراج.

فالمعجزة: اسمٌ للأمر الخارق للعادة الذي يجعله الله دلالةً علىٰ صدق النبيِّ ﷺ، ولم يأتِ في القرآن والسنَّة باسم المعجزة، إنما جاء ذكر الآيات أو الآية، والذين عرَّفوا المعجزة قالوا: هي أمرٌ خارق للعادة، متحدًّىٰ به، مقرونٌ بادِّعاء النبوَّة[1].

والحقيقة: أنَّ هذا التعريف محلُّ نقدٍ عند أهل العلم[2]؛ لأنه جعل من شرط المعجزة التحدِّي، وعليه فكلُّ الآيات التي ظهرت علىٰ يدي الرسول ﷺ غير

(١) انظر: «الإنصاف» للباقلاني (ص٥٨- الأزهرية)، و«الاقتصاد في الاعتقاد« للغزالي (ص ١٠٧- الكتب العلمية)، و«المعيار المعرب» للونشريسي (١١/ ٢٥٠-٢٥١، الأوقاف المغربية)، و«التعريفات» للجرجاني (ص٢١٩- الكتب العلمية)، و«لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (٢/ ٢٨٩-٢٩٠، الخافقين).

(٢) انظر: «النبوَّات» (١/ ٦٠٤- أضواء السَّلف)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٣١١)، و«الجواب الصحيح» (٦/ ٣٨٠- العاصمة)؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية.

القرآن ليست محلَّ إعجاز؛ لأنها ليست محلَّ تحدٍّ، وهذا منهج العقلانيين. أمَّا أهلُ السنَّة والجماعة فيقولون: هي آيةٌ، وهي دليلٌ علىٰ صدق النبوَّة، ولا يُشترط فيها أن تكون مقرونة بالتحدِّي، فتشمل في كلامهم: القرآن[١]. وما ظهر علىٰ يدي رسول الله ﷺ من الأمور الخارقة للعادة، والتي تسمَّىٰ دلائل النبوَّة؛ مثل: نبع الماء من بين أصابعه[٢]، وتكثير الطعام[٣]،.....................

(١) قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «النبوَّات» (٢/ ٧٩٤): «عامَّة معجزات الرسول لم يكن يتحدَّىٰ بها، ويقول: ائتوا بمثلها. والقرآن إنما تحدَّاهم لمَّا قالوا: إنه [افتراه]، ولم يتحدَّاهم به ابتداءً، وسائر المعجزات لم يتحدَّ بها، وليس فيما نُقل تحدٍّ إلا بالقرآن، لكن قد عُلم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء. فهذا لازمٌ لها، لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره». اهـ

(٢) أخرج البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوَّة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٧٢)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب في معجزات النبيِّ ﷺ، حديث رقم (٢٢٧٩)، عن قتادة، عَن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ وَهُوَ بِالزَّورَاءِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَنبُعُ مِن بَينِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ القَومُ». قَالَ قَتَادَةُ: قُلتُ لِأَنَسٍ: كَم كُنتُم؟ قَالَ: «ثَلَثَمِائَةٍ، أَو زُهَاءَ ثَلَثِمِائَةٍ».

(٣) أخرج البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوَّة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٧٨)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلىٰ دار من يثق برضاه، حديث رقم (٢٠٤٠)، عَن إِسحَاقَ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ أَبِي طَلحَةَ: أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ أَبُو طَلحَةَ لِأُمِّ سُلَيمٍ: لَقَد سَمِعتُ صَوتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَعِيفًا، أَعرِفُ فِيهِ الجُوعَ، فَهَل عِندَكِ مِن شَيءٍ؟ قَالَت: نَعَم، فَأَخرَجَت أَقرَاصًا مِن شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخرَجَت خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الخُبزَ بِبَعضِهِ، ثُمَّ دَسَّتهُ تَحتَ يَدِي، وَلَاثَتنِي بِبَعضِهِ، ثُمَّ أَرسَلَتنِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: فَذَهَبتُ بِهِ، فَوَجَدتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي المَسجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمتُ عَلَيهِم، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: آرسَلَكَ أَبُو طَلحَةَ؟ فَقُلتُ: نَعَم. قَالَ: بِطَعَامٍ، فَقُلتُ: نَعَم، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَن مَعَهُ: قُومُوا، فَانطَلَقَ، وَانطَلَقتُ بَينَ أَيدِيهِم حَتَّىٰ جِئتُ أَبَا طَلحَةَ فَأَخبَرتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيمٍ، قد =

وحنين الجذع(١)، وسحبه لغصن الشجرة فانقياد الشجرة له(٢)، وكلام الدوابِّ

=

جاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ، وَلَيسَ عِندَنَا مَا نُطعِمُهُم، فَقَالَت: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.
فَانطَلَقَ أَبُو طَلحَةَ حَتَّىٰ لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو طَلحَةَ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيمٍ مَا عِندَكِ! فَأَتَت بِذَلِكَ الخُبزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَفُتَّ، وَعَصَرَت أُمُّ سُلَيمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَن يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: ائذَن لِعَشَرَةٍ، فَأَذِنَ لَهُم فَأَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: ائذَن لِعَشَرَةٍ، فَأَذِنَ لَهُم فَأَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: ائذَن لِعَشَرَةٍ، فَأَذِنَ لَهُم فَأَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: ائذَن لِعَشَرَةٍ، فَأَكَلَ القَومُ كُلُّهُم وَشَبِعُوا، وَالقَومُ سَبعُونَ أَو ثَمَانُونَ رَجُلًا».

(١) أخرج البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوَّة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٨٤)، عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَومَ الجُمُعَةِ إِلَىٰ شَجَرَةٍ أَو نَخلَةٍ، فَقَالَتِ امرَأَةٌ مِنَ الأَنصَارِ أَو رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَجعَلُ لَكَ مِنبَرًا؟ قَالَ: إِن شِئتُم، فَجَعَلُوا لَهُ مِنبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَومَ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَىٰ المِنبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيهِ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ، قَالَ: كَانَت تَبكِي عَلَىٰ مَا كَانَت تَسمَعُ مِنَ الذِّكرِ عِندَهَا».

(٢) أخرج مسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب حديث جابر الطويل وصاحبه أبي اليسر، حديث رقم (٣٠١٤)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال في حديثه الطويل: «سِرنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ نَزَلنَا وَادِيًا أَفيَحَ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقضِي حَاجَتَهُ، فَاتَّبَعتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِن مَاءٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَم يَرَ شَيئًا يَستَتِرُ بِهِ، فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الوَادِي، فَانطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ إِحدَاهُمَا فَأَخَذَ بِغُصنٍ مِن أَغصَانِهَا، فَقَالَ: انقَادِي عَلَيَّ بِإِذنِ اللهِ، فَانقَادَت مَعَهُ كَالبَعِيرِ المَخشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حَتَّىٰ أَتَىٰ الشَّجَرَةَ الأُخرَىٰ، فَأَخَذَ بِغُصنٍ مِن أَغصَانِهَا، فَقَالَ: انقَادِي عَلَيَّ بِإِذنِ اللهِ، فَانقَادَت مَعَهُ كَذَلِكَ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالمَنصَفِ مِمَّا بَينَهُمَا لَأَمَ بَينَهُمَا، يَعنِي جَمَعَهُمَا، فَقَالَ: التَئِمَا عَلَيَّ بِإِذنِ اللهِ، فَالتَأَمَتَا، قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجتُ أُحضِرُ مَخَافَةَ أَن يُحِسَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُربِي فَيَبتَعِدَ، فَجَلَستُ أُحَدِّثُ نَفسِي، فَحَانَت مِنِّي لَفتَةٌ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُقبِلًا، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَد افتَرَقَتَا، فَقَامَت كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنهُمَا عَلَىٰ سَاقٍ».

معه ﷺ[١].

ومثل: إخباره ﷺ عن أمور غائبة في نفوس الناس، فقد كان يبدأ أحيانًا الرجل بالكلام عمَّا في نفسه، ولم يكن قد أطلع عليه أحدًا[٢].

فهذه كلُّها من الآيات والدلائل علىٰ نبوَّته ﷺ تخرج عن مسمَّىٰ المعجزة، إذا اشترطنا في الآية أو الدليل أن يكون متحدًّىٰ به؛ لأن هذه الآيات لم يقع بها التحدِّي، فلذلك لا نزيد في التعريف كلمة «متحدًّىٰ به».

الكرامة: هو الأمرُ الخارق للعادة الذي يحصل علىٰ يد مَن ظاهرُه الخير

---

(١) أخرج أحمد (٣/ ٢٧٣-٢٧٤ و٢٨١، رقم ١٧٤٥ و١٧٥٤). وأبو داود في كتاب الجهاد، باب مَا يُؤمَرُ بِهِ مِنَ القِيَامِ عَلَىٰ الدَّوَابِّ وَالبَهَائِمِ، حديث رقم (٢٥٤٩)، وأبو عوانة في «المستخرج» (٢/ ٢٩٦-٢٩٧، رقم ٥٦٩)، والحاكم (٢/ ١٠٩، رقم ٢٤٨٥)، عَن عَبدِ اللهِ بنِ جَعفَرٍ، قَالَ: «أَردَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ خلفهُ ذَاتَ يوم، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا استَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا، أَو حَائِشَ نَخلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلِ الأَنصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَت عَينَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَن رَبُّ هَذَا الجَمَلِ، لِمَن هَذَا الجَمَلُ؟، فَجَاءَ فَتًىٰ مِنَ الأَنصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدئِبُهُ!».

وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٢٢٩٧).

(٢) كما في قصَّة إخبار النبيِّ ﷺ عمير بن وهب الجمحي بما تواطأ عليه هو وصفوان بن أمية لمَّا قعدا بمكَّة في الحجر في الفتك به ﷺ بعد مُصاب أهل بدر. والقصَّة أخرجها ابنُ إسحاق كما في «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٢٠)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص٤٧٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٤٧-١٤٩) من طريقين عن عروة بن الزبير.

والصلاح؛ أي: علىٰ يدي أولياء الله[١]، وقد حصل من هذه الكرامات أشياء كثيرة للأمم السابقة وفي أمَّتنا؛ فما للأمم السابقة مثلما حصل لمريم أمِّ المسيح عليهما السلام، فقد كان زكريَّا عليه السلام كلَّما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

وذكر بعضُ أهل التفسير: أن زكريَّا عليه السلام كان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء، ويجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء[٢].

ومثله ما قصَّه الله تعالى لنا عن أصحاب الكهف؛ هؤلاء الفتية الذين دخلوا الكهف، فناموا فيه نومةً مكثوا فيها ثلثمائة سنة أو تزيد، ثم استيقظوا وخرجوا إلىٰ الناس يمشون ليس بهم بأس، يعني: ناموا هذا الوقت الطويل الذي تُبعد العادة أن يكون مثله، وهم في كامل صحَّتهم، وأجسادُهم كما هي، فبعثهم الله تعالى بعد هذه النومة الطويلة، كرامةٌ حصلت لهم؛ لأنهم فرُّوا بدينهم من مَلِك ظالم كان يتتبَّعهم ويؤذيهم علىٰ الإيمان الذي كانوا عليه.

وفي هذه الأمَّة حصلت كراماتٌ كثيرة؛ فممَّا ثبت بالسند الصحيح أن بعض

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٢١٤)، و«التعريفات» (ص١٨٤)، و«لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٣٩٢).

(٢) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول الضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس والسدي وغيرهم، انظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٣٥٣-٣٥٧، هجر)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٦٤٠).

الصحابة كانوا يسمعون تسبيح الطعام والحصىٰ بين يديه[1].

ومنها: أن بعض الصحابة كان يسمع تسليم الملائكة إكرامًا من الله ﷻ له[2].

ومنها: ما حصل للطُّفيل بن عمرو الدوسي -من قبيلة أبي هريرة ﷺ- أنه أتىٰ إلىٰ الرسول في مكَّة وأسلَم، ولمَّا أراد أن يرجع إلىٰ قومه، قال: «يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي امرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَومِي وَإِنِّي رَاجِعٌ إِلَيهِم فَدَاعِيهِم إِلَىٰ الإِسلَامِ، فَادعُ اللهَ أَن يَجعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ لِي عَونًا عَلَيهِم فِيمَا أَدعُوهُم إِلَيهِ، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ اجعَل لَهُ آيَةً**. قَالَ: فَخَرَجتُ إِلَىٰ قَومِي حَتَّىٰ إِذَا كُنتُ بِثَنِيَّةٍ يُقَالُ لَهَا كَذَا وَكَذَا تُطلِعنِي عَلَىٰ الحَاضِرِ، وَقَعَ نُورٌ بَينَ عَينَيَّ مِثلُ المِصبَاحِ، قَالَ: قُلتُ: اللهُمَّ فِي غَيرِ وَجهِي؛ إِنِّي أَخشَىٰ أَن يَظُنُّوا أَنَّهَا مُثلَةٌ وَقَعَت فِي وَجهِي لِفِرَاقِ دِينِهِم، قَالَ: فَتَحَوَّلَ فَوَقَعَ فِي رَأسِ سَوطِي كَالقِندِيلِ المُعَلَّقِ وَأَنَا أَهبِطُ إِلَيهِم مِنَ الثَّنِيَّةِ، حَتَّىٰ جِئتُهُم

(١) أخرج البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوَّة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٧٩)، عَن عَبدِ اللهِ، قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنتُم تَعُدُّونَهَا تَخوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ المَاءُ، فَقَالَ: اطلُبُوا فَضلَةً مِن مَاءٍ، فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ فَأَدخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَىٰ الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالبَرَكَةُ مِنَ اللهِ، فَلَقَد رَأَيتُ المَاءَ يَنبُعُ مِن بَينِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَقَد كُنَّا نَسمَعُ تَسبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤكَلُ.

(٢) أخرج مسلم في كتاب الحج، باب جواز التمتع، حديث (١٢٢٦)، عَن مُطَرِّفٍ، قَالَ: قَالَ لِي عِمرَانُ بنُ حُصَينٍ أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا عَسَىٰ اللهُ أَن يَنفَعَكَ بِهِ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَمَعَ بَينَ حَجَّةٍ وَعُمرَةٍ، ثُمَّ لَم يَنهَ عَنهُ حَتَّىٰ مَاتَ، وَلَم يَنزِل فِيهِ قُرآنٌ يُحَرِّمُهُ، وَقَد كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حَتَّىٰ اكتَوَيتُ، فَتُرِكتُ، ثُمَّ تَرَكتُ الكَيَّ فَعَادَ».

فَأَصبَحَتُ فِيهِم»(١).

ومنها: ما ثبت أن عمر بن الخطاب ﷺ كان مرَّة يخطب، وفجأة قطع الخطبة وقال: يا سارية الجبل! يا سارية الجبل! وكان قد بعث بعثًا يُقاتل في جهة المشرق بنَهاوند، فكشف الله ﷻ لعُمر حالهم، ورأىٰ عمر ببصيرته أن من مصلحة الجيش أن يكون الجبل من خلفهم حتىٰ لا يأتي العدوُّ من ورائهم، فانتبه سارية إلىٰ ذلك وسمع صوت عمر، فارتدَّ إلىٰ جهة الجبل حتىٰ لا يأتي العدوُّ من ورائهم(٢).

ومنها: ما وقع لسفينة ﷺ خادم الرسول ﷺ؛ فعَنِ ابنِ المُنكَدِرِ: «أَنَّ سَفِينَةَ، مَولَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخطَأَ الجَيشَ بِأَرضِ الرُّومِ أَو أُسِرَ فِي أَرضِ الرُّومِ، فَانطَلَقَ هَارِبًا يَلتَمِسُ الجَيشَ، فَإِذَا هُوَ بِالأَسَدِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الحَارِثِ، إِنِّي مَولَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَانَ مِن أَمرِي كَيتَ وَكَيتَ. فَأَقبَلَ الأَسَدُ يُبَصبِصُهُ، حَتَّىٰ قَامَ إِلَىٰ جَنبِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ صَوتًا أَهوَىٰ إِلَيهِ، ثُمَّ أَقبَلَ يَمشِي إِلَىٰ جَنبِهِ، فَلَم يَزَل كَذَلِكَ حَتَّىٰ بَلَغَ الجَيشَ، ثُمَّ رَجَعَ الأَسَدُ»(٣).

---

(١) انظر: «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٢- طه عبد الرءوف)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٦٠- الكتب العلمية)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (ص٢٣٨- النفائس)، و«دلائل النبوة» لقوَّام السنَّة (ص٢١٢- طيبة).

(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لابن تيمية (ص١٦١- البيان)، و«سير أعلام النبلاء» (ص١٣٦- تاريخ الخلفاء)، و«البداية والنهاية» (١٠/ ١٧٥- هجر).

(٣) القصَّة أخرجها اللالكائي في «كرامات الأولياء» (١١٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٤٦).

وقد حصلت لغيرهم من الصحابة ولغيرهم أيضًا كراماتٌ من الله ﷻ، وقد صنَّف فيها جماعة من العلماء.

الاستدراج: هو أمرٌ خارقٌ للعادة، يُظهره الله علىٰ يد صاحب المعصية استدراجًا له في معصيته[1].

ولذلك يُفرِّق العلماء[2] بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بالنظر في حال هذا الذي حصل علىٰ يديه هذا الخارق؛ إن كان من أهل الاستقامة علىٰ الكتاب والسنَّة؛ فهو كرامةٌ من الله ﷻ، وإن كان من أهل الفسوق أو الشعوذة أو الخارجين عن الشريعة؛ علموا أن هذا استدراج من الله ﷻ لهذا الشخص، وأنه ليس من أولياء الله تعالىٰ؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فالإيمان والتقوىٰ هو صفةُ الأولياء، فإذا كان ظاهر حال الشخص الذي ظهر علىٰ يديه هذا الأمر الخارق خلاف شرع الله؛ فهذا من الاستدارج، وأكبرُ مثال علىٰ ذلك ما يظهر علىٰ يد مدَّعي الألوهية في آخر الزمان، وهو المسيح الدجَّال.

وكلام المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه الأمور، ولكنَّه ركَّز الكلام علىٰ الكرامة.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٢٧٨)، و«الجواب الصحيح» (٢/ ٣٣٨، ٣٤٣)، و«التعريفات» (ص١٨٤)، و«لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٣٩٢).

(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص٧٩- البيان)، و«جامع المسائل» (ص٩٧)، و«شرح الطحاوية» (ص٥٠٦-٥٠٧، السلام).

فَصلٌ

ثُمَّ مِن طَرِيقَةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيثُ قَالَ: «عَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ مِن بَعدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ»(١).

وَيَعلَمُونَ أَنَّ أَصدَقَ الكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَديِ هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيُؤثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَىٰ غَيرِهِ مِن كَلَامِ أَصنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَديَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ هَديِ كُلِّ أَحَدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهلَ الجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الاجتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الفُرقَةُ، وَإِن كَانَ لَفظُ الجَمَاعَةِ قَد صَارَ اسمًا لِنَفسِ القَومِ المُجتَمِعِينَ.

وَالإِجمَاعُ هُوَ الأَصلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعتَمَدُ عَلَيهِ فِي العِلمِ وَالدِّينِ، وَهُم يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيهِ النَّاسُ مِن أَقوَالٍ وَأَعمَالٍ بَاطِنَةٍ أَو ظَاهِرَةٍ، مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ، وَالإِجمَاعُ الَّذِي يَنضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذ بَعدَهُم كَثُرَ الاختِلَافُ، وَانتَشَرَ فِي الأُمَّةِ.

الشرح

أقول: المنهج السلفي يقوم علىٰ أربعةُ أصول:

(١) سبق تخريجه.

الأصل الأوَّل: وهو أن أصل دعوتهم هو الدعوة إلىٰ عبادة الله وإخلاصها له وحده دون سواه، وهم في ذلك يمتثلون دعوة الأنبياء؛ فإنه ما مِن نبيٍّ بعثه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلا أمر قومه أن اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، ويرون أن هذا الموضوع هو محور الدعوة، فلا يجعلون أيَّ قضيَّة أخرىٰ هي محور الدعوة غير موضوع عبادة الله وإخلاصها له وحده دون سواه.

وسبحان الله! هذا الأصل هو فرقانٌ بين أهل السنَّة وأصحاب الدعوات الحالية؛ فأصحاب الجماعات والأحزاب منهم من يقول: أصلُ دعوتنا للإصلاح السياسي، ومنهم من يقول: أصلُ دعوتنا للإصلاح الاقتصادي وتوزيع الثروة، ومنهم من يقول كذا، ومنهم من يقول كذا، معرضين عن دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، إلَّا أهل السنَّة السلفية أصل دعوتهم تحقيقُ العبادة لله وحده دون سواه.

الأصل الثاني: اتِّباعُ ما كان عليه الرسولُ ﷺ وأصحابه، ودليلُ هذا الأصل نصوصٌ كثيرةٌ، منها قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:٤٨].

ومحلُّ الشاهد قولُه: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ووجه الدلالة أنَّ سبيل المؤمنين أوَّل ما يَصدُق إنما يَصدُق علىٰ ما كان عليه الصحابة -رضوان الله عليه-.

وقولُه ﷺ: «افتَرَقَتِ اليَهُودُ عَلَىٰ إِحدَىٰ وَسَبعِينَ فِرقَةً، وَافتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ

عَلَىٰ ثِنتَينِ وَسَبعِينَ فِرقَةً، وَسَتَفتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»، قَالُوا: مَن هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي»(١).

فالأصل الأصيل في السلفية أنها تقوم علىٰ أساس الاتِّباع، فهم لا يقبلون في تفسير القرآن الكريم ولا في تفسير كلام الرسول ﷺ ما يخرج عن المعاني التي جاءت عن السلف، حتىٰ التفسير بالرأي والتفسير العلمي من شرط قبوله ألا يخالف مخالفة تضادٌّ التفسيرَ المأثور؛ مراعاةً لهذا الأصل، وقال إمام دار الهجرة الإمام مالك: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أوَّلها»(٢). فالأمَّة لن تصلح في يوم من الأيام إذا خالفت هذا المنهج، وسبحان الله! هذا الأصل وهو اتِّباعُ آثار الصحابة والسلف الصالح -رضوان الله عليهم- هو الفرقانُ بين أهل السنَّة وسائر الفرق؛ فإنَّ المعتزلة والصوفية والشيعة وقل ما شئت مِن أهل البدع، كلهم يُخالفون في هذا الأصل؛ فالمعتزلة يقولون: قرآن وسنَّة علىٰ ضوء العقل واللُّغة، الصوفية يقولون: قرآن وسنَّة علىٰ ضوء حدَّثني قلبي عن ربِّي، ويقولون: عِلمُكم ميِّتٌ عن ميِّتٍ، وعِلمُنا عن الحيِّ الذي لا يموت؛ حدَّثني قلبي عن ربِّي! والشيعة يقولون: قرآن وسنَّة علىٰ ضوء أئمَّتهم، ومن يدَّعون أنهم معهم، ولا يقبلون الآثار الواردة عن الصحابة، واذكر من شئت من

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٨٨- الفكر)، و«قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» لابن تيمية (ص١٣٩- الفرقان)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٨٥- عالم الكتب)، و«الرد علىٰ الأخنائي» (ص٥٤- العصرية)؛ كلها لابن تيمية، و«المدخل» لابن الحاج (١/ ٢٦٢- التراث)، «الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي» لابن عبد الهادي (ص٥٩- الريان).

الفرق ستجدهم يُخالفون أهل السنَّة في هذا الأصل، وهو أصلُ الاتِّباع لآثار السلف[1].

الأصل الثالث: لزوم السمع والطاعة لولاة الأمر:

هذا أصلٌ عند أهل السنَّة والجماعة؛ لأنَّ أمر السمع والطاعة لولاة الأمر ذو خطر؛ قال عمرُ بن الخطَّاب ﷺ: «لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بسمع وطاعة»[2]. فكيف تُفهم هذه العبارة؟

أقول: يريد عمر ﷺ أن يقول لك: إن لزوم السمع والطاعة للأمير فيه قيامٌ للجماعة، ولا يقوم الدِّين إلَّا بجماعة، فكأنك إذا تركتَ السمع والطاعة لوليِّ الأمر؛ أضعت الجماعة، فإذا ضاعت الجماعة ضاع الدِّين، ومعلوم أنَّ الشرائع قد اتَّفقت علىٰ حفظ خمسة أمور؛ منها حفظُ الدِّين، إضافةً إلىٰ حفظ العقل والمال والنفس والعرض، فحفظُ الدِّين من أصول الشرائع، فعمر ﷺ يُبيِّن لك خطورة السمع والطاعة لوليِّ الأمر وأهمِّيتها، ولذلك لا غروَ أن الرسول ﷺ في «وصيَّة مُودِّع» يُجمل الدِّين في قوله: «**أُوصِيكُم بِتَقوَىٰ اللهِ، وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ،**

---

(١) قال ابنُ قيِّم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأنت تجد جميع هذه الطوائف تُنزِّل القرآن علىٰ مذهبها وبدعها وآرائها؛ فالقرآن عند الجهمية جهميٌّ، وعند المعتزلة معتزليٌّ، وعند القدرية قدريٌّ، وعند الرافضة رافضيٌّ، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]». «شفاء العليل» (٢/ ٥٨٩-٥٩٠، الصميعي).

(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ٣١٥، رقم ٢٥٧- الداراني)، وابنُ عبد البرِّ في «جامع بيان العلم» (١/ ٢٦٣-٢٦٤، رقم ٣٢٦- الزهيري).

وَإِن تَأَمَّرَ عَلَيكُم عَبدٌ حَبَشِيٌّ».

ولمَّا نقول بلزوم السمع والطاعة لولاة الأمر، نعني وجوب ذلك في المعروف وفيما يستطيعه المسلم، ويدخل في ذلك الصبرُ علىٰ جَورهم، وعدمُ الخروج عليهم، إلىٰ غير ذلك ممَّا ورد عن الرسول ﷺ في هذا الباب.

الأصل الرابع: التحذيرُ من البدع والانحرافات، وهذا الأصل دلَّ عليه مع الأصل الذي قبله، دلَّ عليهما حديثُ أبي نجيح العرباض بن سارية ﷺ، في قوله ﷺ: «فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم بَعدِي فَسَيَرَىٰ اختِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ».

فحديث العرباض بن سارية ﷺ تضمَّن أصل اتِّباع الآثار، وتضمَّن أصل لزوم السمع والطاعة لوليِّ الأمر، وتضمَّن أصل التحذير من البدعة، وتضمَّن أيضًا الأصل الأول الذي ينبغي أن يكون دائمًا هو المقدَّم؛ لأن دعوتهم هي إخلاصُ العبادة لله وحده دون سواه، فهذه أربعةُ أصول هي أصول المنهج السلفي، ولا يقوم إلا بها، وكلُّ كلام علماء السلفية هو علىٰ تحقيق هذه الأصول الأربعة: تحقيق العبادة لله وحده دون سواه، اتِّباع آثار السلف ولزوم السنَّة، لزوم الجماعة والسمع والطاعة لوليِّ الأمر، الحذر والتحذير من البدعة.

فالإمام ابن تيمية رحمه الله هنا يذكر أصول المنهج السلفيِّ، واتِّباعُ الآثار يدخل فيه اتِّباع القرآن واتِّباع السنَّة، والإمام قرَّر اتِّباع القرآن والسنَّة، ثم ذكر الدليل الثالث والأصل الثالث؛ وهو لزوم الإجماع.

قوله: «وَلِهَذَا سُمُّوا أَهلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهلَ الجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الاجتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الفُرقَةُ».

أقول: سبق أن بيَّنَّا لكم أن الجماعة تُطلَق بمعنىٰ لزوم آثار السلف واتِّباعها، وتُطلَق علىٰ الطائفة من النَّاس في مكان ما يتَّبعون ويسمعون ويطيعون لوليِّ أمرهم، فهم مع وليِّ أمرهم جماعة، وتُطلق الجماعة علىٰ الفِرقة من الفِرق، وهذا الأمر الأخير ينبغي أن يكون منبوذًا، وأن يكون المسلم عنه بعيدًا؛ لأنه من مظاهر الفُرقة والاختلاف، فالمسلمون كلُّهم أمَّة واحدةٌ وجماعة واحدة، متبوعُهم رسولُ الله ﷺ.

ثم تكلَّم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك عن الإجماع؛ وأنه الأصل الثالث عند أهل السنَّة، يعني: بعد الكتاب والسنَّة، وأنهم يقيسون النَّاس، ويزنون أعمالهم، والحكم عليهم في عدالتهم واتِّباعهم علىٰ الكتاب والسنَّة.

كما قال الجُنيد: «الطُّرُقُ كُلُّهَا مَسدُودَةٌ عَلَىٰ الخَلقِ إِلَّا عَلَىٰ مَنِ اقتَفَىٰ أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ».

وَقَالَ: «مَذهَبُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وَقَالَ: «مَن لَم يَحفَظِ القُرآنَ، وَيَكتُبِ الحَدِيثَ لَا يُقتَدَىٰ بِهِ فِي هَذَا الأَمرِ، لِأَنَّ عِلمَنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»[1].

---

(١) «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ٩٧- جامعة الإمام)، و«الاعتصام» للشاطبي (١/ ١٦٤- ابن الجوزي).

وقال أبو سليمان الداراني: «رُبَّمَا تَقَعُ فِي قَلبِي النُّكتَةُ مِن نُكَتِ القَومِ أَيَّامًا، فَلَا أَقبَلُ مِنهُ إِلَّا بِشَاهِدَينِ عَدلَينِ: الكتاب والسنَّة»(١).

وقال أبو يزيد البسطامي: «لَو رَأَيتُم الرَّجُلَ يَطِيرُ فِي الهَوَاءِ أَو يَمشِي عَلَىٰ المَاءِ فَلَا تَغتَرُّوا بِهِ حَتَّىٰ تَنظُرُوا وُقُوفَهُ عِندَ الأَمرِ وَالنَّهيِ»(٢).

فيُعرض حال الشخص علىٰ الكتاب والسنَّة ومسائل الإجماع؛ فإن وافقها عُدِّل، وإن خالفها؛ حُكم عليه بحسَب مخالفته.

ثم أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ مسألة أصوليَّة، وهي: بمَن ينعقد الإجماع؟

فالعلماء يقولون: الإجماع هو اتِّفاقُ مجتهدي أمَّة النبيِّ ﷺ بعد وفاته في عصر من العصور.

فهل نستطيع أن نحصر المجتهدين في عصر من العصور؟ وهل يُمكن أن نجتهد في تتبُّع أقوال العلماء في أيِّ عصر من العصور، فهل يمكن أن نحصيهم؟

الجواب: لا يمكن ذلك، إلَّا في زمن الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ لذلك بيَّن ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإجماع الذي يُمكن أن يتحقَّق هو إجماع الصحابة فقط، وهذه مسألة أصولية، وهذا القول هو أرجح الأقوال، أن الإجماع الذي يُمكن أن يتحقَّق بقوَّة، ويمكن أن يُحصر فيه علماء العصر هو إجماع الصحابة؛

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٩٧)، و«الاعتصام» (١/ ١٦١).

(٢) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١١/ ٤٦٦، ٦٦٦)، و«الاعتصام» (١/ ١٦٠).

لأنهم كانوا كالشامة بين الناس، وكانت أقوالهم محلَّ اهتمام الناس، وكانوا لا تأخذهم في الله لومةُ لائم، فالإجماع الوحيد الذي يمكن أن يتحقَّق بقوَّة ووضوح هو إجماع الصحابة، وهذا هو معنىٰ قوله: «وَالإِجمَاعُ الَّذِي يَنضَبِطُ هُوَ: مَا كَانَ عَلَيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذ بَعدَهُم كَثُرَ الاختِلَافُ، وَانتَشَرَ فِي الأُمَّةِ».

❊ ❊ ❊

فَصلٌ

ثُمَّ هُم مَعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ، وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرَونَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبرَارًا كَانُوا أَو فُجَّارًا.

الشرح

من المسائل المهمَّة التي ينبَّه عليها: أنَّ أهل السنَّة والجماعة يرون أنَّ الجهاد والجمعة ماضيان مع كلِّ إمام برًّا كان أو فاجرًا، فتجدهم يقولون في كتب الاعتقاد: «والجهاد ماضٍ مع كلِّ إمام برًّا كان أو فاجرًا»(١).

هكذا يذكرون الجهاد ويطلقونه ولم يُقيِّدوه بكونه جهاد طلب أو جهاد دفع، وهذا يفيد أن إذن الإمام مطلوبٌ حتىٰ في جهاد الدفع، وهذا خلاف ما شاع عند بعض الناس من قولهم: جهاد الدفع لا يُشترط فيه إذن الإمام. وقد يقول قائلٌ: إن بعض الفقهاء يقول: إن جهاد الدفع لا يُشترط فيه ما يُشترط في

(١) انظر: «أصول السنة – رواية عبدوس» للإمام أحمد (ص٤٣– المنار)، و«شرح السنَّة» للمزني (ص٨٨– الغرباء الأثرية)، و«السنَّة» لابن أبي عاصم (٢/ ٦٤٧– المكتب الإسلامي)، و«عقيدة الطحاوي –بشرح ابن أبي العز الحنفي–» (ص٣٨٨– دار السلام)، و«شرح السنَّة» للبربهاري (ص١١٦ و١٣٢– الردادي)، و«رسالة إلىٰ أهل الثغر» للأشعري (ص١٦٩– الجنيدي)، و«الجامع في السنن والمغازي والآداب» للقيرواني (ص١١٦– الرسالة)، و«أصول السنَّة» لابن أبي زَمَنين (ص٢٨٨– الغرباء الأثرية).

جهاد الطلب؛ فلا يشترط فيه إذنُ الإمام!

أقول: تتبَّع كلام الفقهاء تجدهم لمَّا قالوا: وجهاد الدفع لا يُشترط فيه إذن الإمام، إنما أرادوا جهاد الدفع الذي يكون من باب دفع الصائل، الذي تكون في حال إمَّا قاتلًا أو مقتولًا، فهنا لا يقول لك الفقيه: يلزمك أن تستأذن الإمام، لكن ادفع عن نفسك وقاتل، فلا يُشترط هنا إذن الإمام، وهذا يُشير به الفقهاء إلىٰ أن جهاد الدفع علىٰ صورتين:

الصورة الأولىٰ: أن يهجم العدوُّ علىٰ أهل بلد، فإذا لم يقف أهل تلك الجهة التي دخل منها العدوُّ في وجه العدوِّ ويردُّوه؛ تمكَّن العدوُّ من البلد، فهنا نقول: لا تنتظروا إذن الإمام، بل هُبُّوا وامنعوا العدوَّ؛ لأنكم لو تأخَّرتم حتىٰ يأتي إذنُ الإمام؛ سيتمكَّن العدو.

الصورة الثانية: أن يكون العدوُّ قد تمكَّن في البلد، فهنا لا تتحرَّك إلا بإذن الإمام؛ حيث إن الإمام هو الذي يتولَّىٰ تنظيم عملية الجهاد.

وتجدون هذا التفصيل في كلام الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ففي مسائل ابنه عبد الله: «سَمِعت أبي يقُول: إِذا أَذن الإِمَامُ القَوم يَأتِيهم النَّفير، فَلَا بَأس أَن يخرجُوا، قلتُ لأبي: فَإِن خَرجُوا بِغَير إذن الإِمَام؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَن يَأذَن الإِمَام، إِلَّا أَن يكون يفاجئهم أَمرٌ من العَدو، وَلَا يُمكنهُم أَن يستأذنوا الإِمَام، فأرجو أَن يكون ذَلِك دفعًا من المُسلمين»(١).

(١) «مسائل الإمام أحمد -رواية ابنه عبد الله-» (ص ٢٥٨- الشَّاويش).

ونقل هذا التَّفصيل ابنُ قُدامة في «المغني»[١].

فمن فهم من كلام الفقهاء أنَّ جهاد الدفع لا يُطلب فيه إذنُ الإمام مطلقًا؛ صار كلامه معارضًا لكلام أئمَّة العقيدة، والواقع أنه لا معارضة، فأئمَّة العقيدة يقولون في كلِّ جهاد لابدَّ فيه من إذن الإمام، والفقهاء بيَّنوا هذه الحالة الخاصَّة، وهي حالة ما كان فيه جهاد الدفع من باب دفع الصائل الذي يكون فيه الإنسان بين أمرين إمَّا قاتلًا وإمَّا مقتولًا، ففي هذه الحالة لا يُطلب إذنُ الإمام، ولا يُطلب فيها إذنُ الوالدين، ولا يُشترط فيها سنُّ البلوغ.

لكن الحالة الأخرىٰ؛ وهي التي يدخل فيها العدوُّ إلىٰ بلد ويتمكَّن، فنقول: لا تتحرَّكوا إلَّا بإذن الإمام؛ ومكَّةُ في زمن الرَّسول ﷺ ألَا يُعتبرُ بلدًا إسلاميًّا استولىٰ عليه الكفَّار وطردوا منه المؤمنين؟ بلىٰ، إذن الرُّجوع إلىٰ مكَّة يوم الفتح كانَ من باب الدَّفع أو من باب الطَّلب؟ من باب الدَّفع، لا أحدَ تحركَ إلَّا بإذن الرَّسول ﷺ، وكلُّ معاركه ﷺ في المدينة كانت من باب الدَّفع أو الطَّلب؟ كانت من باب الدفع؛ وتأمَّلوا: ففي غزوة بدر؛ اعترض النبيُّ ﷺ القافلة، فلمَّا لم يدركها رجع إلىٰ المدينة، فجاءت قريش بجيشها إلىٰ المدينة، فخرج الرَّسول ﷺ لدفعهم، وفي غزوة أُحدٍ هم جاءوا، ومع ذلك منع ابن عمر من القتال[٢]،

(١) (٩/ ٢١٣-٢١٤)، مكتبة القاهرة).

(٢) أخرج البخاري: كتاب الشَّهادات، باب: بُلُوغِ الصِّبيَانِ وَشَهَادَتِهِم، حديث رقم (٢٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب: بيان سن البلوغ، حديث رقم (١٨٦٨)، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَضَهُ يَومَ أُحُدٍ، وَهُوَ ابنُ أَربَعَ عَشرَةَ سَنَةً، فَلَم يُجِزنِي ثُمَّ عَرَضَنِي يَومَ الخَندَقِ، وَأَنَا ابنُ خَمسَ عَشرَةَ سَنَةً، فَأَجَازَنِي».

والصحابة لم يتحرَّكوا إلا بإذنه، وفي غزوة الخندق والأحزاب هم جاءوا كذلك، وحتىٰ خروجه من المدينة إلىٰ مكَّة أيضًا كان من باب الدَّفع، فكلُّ أحكام الجهاد التي نذكرُ أنَّها في باب الطَّلب هي في باب الدَّفع، إذن لا يصحُّ أن نقول: إنَّه لَا يُشترطُ في الدَّفع ما يُشترط في الطَّلب.

والصورة الوحيدة التي تفارقها هي هذه التي ذكرناها فقط وهي صورة دفع الصائل، لكن الضُّلَّال صاروا يعلنون بين النَّاس أن هذا جهادُ دفع ويُخرجون النَّاس إلىٰ ساحة المعارك، ويقولون: لا تستأذن من والديك، ووليُّ الأمر إن منعك فهو عاصٍ، وهذا ظلم، فاهرب منه، واخرج ولا تسمع إليه! وهذا كلُّه غلطٌ، فلنتأمَّل المسألة جيِّدًا، ونفهم كلام أهل العلم علىٰ وجهه؛ فكتب العقيدة كلُّها مُطبقة علىٰ هذه العبارة: «نرىٰ الجهادَ مع كلِّ إمام برًّا كان أو فاجرًا». فأطلقوا العبارة في الجهاد ولم يُقيِّدوها، فمعنىٰ هذا أنَّ هذا في الدَّفع كما هو في الطلب.

* * *

وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الجَمَاعَاتِ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعتَقِدُونَ مَعنَىٰ قَولِهِ ﷺ: «المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كَالبُنيَانِ المَرصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا -وَشَبَّكَ بَينَ أَصَابِعِهِ- »(١).

وَقَولِهِ ﷺ: «مَثَلُ المُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ؛ إِذَا اشتَكَىٰ مِنهُ عُضوٌ؛ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ»(٢).

الشرح

أقول: هذا من أهمِّ صفات المسلم الحقِّ، وهو حرصه علىٰ الجماعة، ونبذُه لأيِّ سببٍ يُؤدِّي إلىٰ الفُرقة والاختلاف، هذا الذي أصبح اليوم من السنن المهجورة؛ تجد الواحد طالب علم لكنه لا يهتمُّ بما يؤدِّي إلىٰ أسباب الاجتماع والاتِّفاق، وهذا من أخطر ما يكون؛ لأن سياسة النَّاس والسياسة العامَّة كلها تقوم علىٰ أساس نبذ كلِّ ما يسبِّب الفُرقة والاختلاف.

وهذا الأمر اهتمَّ به الإسلام اهتمامًا كبيرًا، فنهىٰ عن التنابز بالألقاب، ونهىٰ عن الحقد، وعن الحسد، وعن الغِيبة، وعن النميمة، وبيَّن أن الصلاح والفلاح

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب تَعَاوُنِ المُؤمِنِينَ بَعضِهِم بَعضًا، حديث رقم (٦٠٢٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (٢٥٨٥)، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رَحمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ، حديث رقم (٦٠١١)، ومسلم -واللفظ له- في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

والخير في نبذ هذه الأمور، والله ﷻ يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

فمن أهمِّ ما ينبغي أن نتواصىٰ به أن نبتعد عن كلِّ شيء يسبِّب الفُرقة والاختلاف، والآن وُجد من يتسمَّىٰ أو يوصف بأنه من العلماء ومن المفكِّرين، وكلُّ كلامه في التأصيل لما يؤيِّد الفُرقة والاختلاف، فهو يدعو إلىٰ جماعة معيَّنة، ويتكلَّم في ضوء دائرة حزب معيَّن ومنهج معيَّن، وهذا كلُّه من أسباب الفُرقة والاختلاف التي ينبغي لنا أن ننبذها.

فينبغي لنا أن نحرص أن نكون كما وصفنا الرسولُ ﷺ: «المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا»(١).

وكما قال ﷺ: «مَثَلُ المُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ؛ إِذَا اشتَكَىٰ مِنهُ عُضوٌ؛ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ»(٢).

فالاختلاف نقمةٌ وسببٌ للحرمان من الخير؛ ألا ترىٰ أن الله ﷻ رفع تعيين ليلة القدر بسبب اختلاف بعض الصحابة -رضوان الله عليهم-(٣)، فالاختلاف

(١) سبق تخريجه.

(٢)سبق تخريجه.

(٣) أخرج البخاري في كتاب فضل ليلة القدر، باب رَفعِ مَعرِفَةِ لَيلَةِ القَدرِ لِتَلَاحِي النَّاسِ، حديث رقم (٢٠٢٣)، عَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﵁، قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخبِرَنَا بِلَيلَةِ القَدرِ، فَتَلَاحَىٰ رَجُلَانِ مِنَ المُسلِمِينَ، فَقَالَ: «خَرَجتُ لِأُخبِرَكُم بِلَيلَةِ القَدرِ، فَتَلَاحَىٰ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَرُفِعَت وَعَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيرًا لَكُم، فَالتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالخَامِسَةِ».

ليس بخير، فعلىٰ المسلم أن يسعىٰ إلىٰ الجماعة والاتِّفاق بكلِّ طريق شرعي حتَّىٰ ولو تنازل عن شيء في حقٍّ نفسه من أجل تحقيق الجماعة.

* * *

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبرِ عِندَ البَلَاءِ، وَالشُّكرِ عِندَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ، وَيَدعُونَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعمَالِ، وَيَعتَقِدُونَ مَعنَىٰ قَولِهِ ﷺ: «أَكمَلُ المُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحسَنُهُم خُلُقًا»(١).

الشرح

أعلىٰ الأخلاق التي ينبغي أن يتخلَّق بها المسلم هي الصبر، ولذلك نوَّه الله ﷻ بها في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:١-٣].

فالصبر خُلقٌ يحتاجه المسلم في شأنه كلِّه؛ فيحتاجه في التعامل مع الناس؛ يقول الرسولُ ﷺ: «المُؤمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُم، أَعظَمُ أَجرًا مِنَ المُؤمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُم»(٢).

ويحتاجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال لقمان في وصيَّته

---

(١) أخرجه أحمد (١٢/ ٣٦٤ تحت رقم ٧٤٠٢)، و(١٦/ ١١٤ و٤٧٨ تحت رقم ١٠١٠٦ و١٠٨١٧)، وأبو داود في كتاب السنَّة، باب الدَّلِيلِ عَلَىٰ زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقصَانِهِ، حديث رقم (٤٦٨٢)، والترمذي في أبواب الرضاع، باب مَا جَاءَ فِي حَقِّ المَرأَةِ عَلَىٰ زَوجِهَا، حديث رقم (١١٦٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨/ ١٨٧ تحت رقم ٢٣٠٩٨)، والترمذي في أبواب القيامة والرقائق والورع، حديث (٢٥٠٧)، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ، لم يُسمَّ.
وجاء التصريح باسمه في رواية لأحمد (٩/ ٦٤ تحت رقم ٥٠٢٢)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر علىٰ البلاء، حديث (٤٠٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، بأنَّه ابن عمر رضي الله عنهما. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٣٩).

لابنه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧].

وحضَّ الله ﷻ رسوله ﷺ علىٰ الصبر، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

فهذا الرسول ﷺ أحسنُ النَّاس خُلقًا خوطب بذلك، فالصبر من أعلىٰ الأخلاق ومن أهمِّها، وهو خُلق منسيٌّ اليوم! فكثيرٌ من النَّاس ليس في بالهم أن الصبر عبادةٌ يؤجر الإنسان عليها، تراه إذا جاء يطلب حاجةً لا صبر له؛ يقول: اختر لي الشيء الذي لا أتعب فيه، فهو لا يريد أن يصبر علىٰ شيء، فهذه عبادة منسيَّة وعبادة متروكة.

وحقيقة الصبر أن يُوطِّن العبدُ النفس علىٰ أن يحبسها علىٰ الطاعة أمام داعي الهوىٰ والشهوة، وهو ثلاثة أنواع: صبر علىٰ فعل الطاعات، وصبر عن ترك المعصيات، وصبر علىٰ المقادير والمصائب التي يقدِّرها الله ﷻ علىٰ الإنسان.

والصبر يكون لله، وبالله، ومع الله، ومن أراد التوسُّع في موضوع الصبر؛ فليقرأ ما كتبه الإمام ابنُ قيِّم الجوزية في كتابه «عدة الصابرين».

والإسلام يدعو إلىٰ مكارم الأخلاق، ولا غروَ في ذلك، فهذا رسولُ الله ﷺ يقول: «بُعِثتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمحَةِ»(١).

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٦٢٣ رقم ٢٢٢٩١)، والطبراني (٨/ ٢١٦ رقم ٧٨٦٨)، عن أبي أمامة الباهلي ﷺ في حديث له قصَّة. قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٧٩): «فيه عَلِيُّ بنُ يَزِيدَ الأَلهَانِيُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ». وقوَّاه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٢٤) بما له من الشواهد.

ويقول: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخلَاقِ»[1].

فالدِّين كلُّه يقوم علىٰ تحقيق الأخلاق في كلِّ العبادات؛ في الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، حتىٰ في الطهارة المعنىٰ الأخلاقي قائم فيها، وفي كلِّ عبادة أمرك بها الشرع تجد الجانب الأخلاقي فيها قائمًا، ولذلك ينبغي أن تحرص أيُّها المسلم علىٰ التحلِّي بأفضل الأخلاق ومكارمها، فإننا لن نستطيع أن نسع الناس بأموالنا، إنما نسعهم بأخلاقنا.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البزَّار (١٥/ ٣٦٤ رقم ٨٩٤٩)، والقُضاعيُّ في «مسند الشهاب» (٢/ ١٩٢، رقم ١١٦٥)، وتمَّام في «الفوائد» (٢٧٦)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ١٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (١٤/ ٥١٢-٥١٣، تحت رقم ٨٩٥٢)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٠٤، رقم ٢٧٣)، «صحيح الأدب المفرد» (ص١١٨، تحت رقم ٢٠٧/ ٢٧٣)، وأبو القاسم البغويُّ في «حديث مصعب» (١٠٥)، والطحاويُّ في «مشكل الآثار» (١١/ ٢٦٣ رقم ٤٤٣٢)، والحاكم (٢/ ٦٧٠، رقم ٤٢٢١- عطا)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ١٩١، ١٩٢)، و«شعب الإيمان» (١٠/ ٣٥٢، رقم ٧٦٠٩- الرشد)، وابنُ عبد البرِّ في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٣-٣٣٤) بلفظ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخلَاقِ». إلَّا البخاريَّ فقد ورد عنده: «صَالِحِي الأَخلَاقِ». والحديث صحَّحه الحاكم، ومحقِّقو «مسند أحمد»، والألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد»، وفي «سلسلة الأحاديث الصحيحة» حديث رقم (٤٥).

وَيَندُبُونَ إِلَىٰ أَن تَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وَتُعطِيَ مَن حَرَمَكَ، وَتَعفُوَ عَمَّن ظَلَمَكَ. وَيَأمُرُونَ بِبِرِّ الوَالِدَينِ، وَصِلَةِ الأَرحَامِ، وَحُسنِ الجِوَارِ، وَالإِحسَانِ إِلَىٰ اليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِينِ وَابنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفقِ بِالمَملُوكِ. وَيَنهَونَ عَنِ الفَخرِ، وَالخُيَلَاءِ، وَالبَغيِ، وَالاستِطَالَةِ عَلَىٰ الخَلقِ بِحَقٍّ أَو بِغَيرِ حَقٍّ. وَيَأمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخلَاقِ، وَيَنهَونَ عَن سَفسَافِهَا.

الشرح

أقول: جاء في الحديث عند الحاكم[1] -وهو حديث صحيح-: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخلَاقِ، وَيَكرَهُ سَفسَافَهَا».

وسفسافها: يعني الأمور الدنيئة المنحطَّة.

فعلىٰ المسلم أن يتبصَّر لنفسه الطريق؛ ليحذر من كلِّ أمر هو من سفاسف الأخلاق، ومن معاني الذلَّة والمهانة، وليبتعد عنها.

وما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو من الآداب الشرعية التي أمرنا بها رسولُ الله ﷺ.

❊ ❊ ❊

(١) «المستدرك» (١/ ١١١-١١٢، رقم ١٥١ و١٥٢) وصحَّحه، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٣٢٢)، وفي «شعب الإيمان» (١٠/ ٣٧٣، رقم ٧٦٤٦ و٧٦٤٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢١٠، رقم ٢٩٤٠)، وفي «الكبير» (٦/ ١٨١، رقم ٥٩٢٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٥٥)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وأورده الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٣٧٨).

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفعلُونَهُ مِن هَذَا وَغَيرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُم فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُم هِيَ دِينُ الإِسلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

الشرح

نعم؛ هذا أمر مهمٌّ! ولذلك نقول: إن شعارنا هو الاتِّباع، وليس الفكر، والعالم إنما يكون عالمًا بقدر اتِّباعه للكتاب والسنَّة وكون كلامه بقال الله وقال رسوله ﷺ.

العلمُ قال اللهُ قال رسولُه ... قال الصحابةُ ليس خُلفٌ فيه
ما العلمُ نصبَك للخلاف سفاهةً ... بين النصوص وبين رأي فقيه

فهذا هو العلم، وإنما يوصف العالم بأنه عالم بذلك، ولذلك توزن الأعمال والأخلاق والأقوال بما جاء في كتاب الله وما جاء في سنَّة رسول الله، ولا محلَّ للأشياء الفكرية، فمن يأتي برياضة اليوغا ويزعم أنها تزكِّي النفس وتصفِّي القلب، نقول له: ما دليلُك من الكتاب والسنَّة؟! فالذي يزكِّي النفس ويصفِّي القلب ويريح الخاطر قراءةُ القرآن وسماعُه واتِّباعُ أحكامه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

والذي يقول: إن سماع الموسيقىٰ والأنغام يهدِّئ النفس ويريح الإنسان ويشفي الأمراض، نقول له: ما دليلُك؟! فإن الذي في القرآن والسنَّة أن الغناء والموسيقىٰ حرام، وأن القرآن والسنَّة أخبرانا ودلَّانا أن السماع لكلام الله ﷻ هو الذي ترتاح به النفس ويطمئنُّ به القلب، فالدليل عند أهل السنَّة والجماعة

قال اللهُ، قال رسولُه، وما تبعه من الإجماع والقياس الصحيح، وما عدا هذا فهو غير معتبر.

❊ ❊ ❊

لَكِن لَمَّا أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتفتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّار؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ(١).

وَفِي حَدِيثٍ عَنهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُم مَن كَانَ عَلَىٰ مِثلِ مَا أَنَا عَلَيهِ اليَومَ وَأَصحَابِي»(٢).

صَارَ المُتَمَسِّكُونَ بِالإِسلَامِ المَحضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوبِ هُم أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنهُم أَعلَامُ الهُدَىٰ، وَمَصَابِيحُ الدُّجَىٰ، أُولُو المَنَاقِبِ المَأثُورَةِ، وَالفَضَائِلِ المَذكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبدَالُ، وَفِيهِم أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجمَعَ المُسلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم وَدِرَايَتِهِم.

الشرح

هذا الكلام الذي قاله المصنِّف كلُّه مقرَّر ومعروف، وأمَّا قوله: «الأبدال»، فإن كلمة الأبدال لم ترد في الكتاب والسنَّة، لكنَّها وردت في كلام بعض الأئمَّة كأحمد ابن حنبل وغيره (٣). والمراد بالأبدال؛ أي: العلماء القائمون بالتمسُّك

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٧)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٩٧)، و«منهاج السنة» (١/ ٩٤)، لابن تيمية. وانظر علىٰ سبيل المثال: «مناقب أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (ص ١٩٩ و٢٤٩)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٦/ ٣٧٦) و(٧/ ٢٧٤
=

بالكتاب والسنَّة، واتِّباع الآثار، يبدل بعضُهم ببعض، إذا ذهب واحد خلفه الآخر، فإن دين الله لا يخلو من قائم به، والرسول ﷺ أشار إلىٰ هذا المعنىٰ في قوله: «إِنَّ اللهَ يَبعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَىٰ رَأسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَن يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»(١).

فهؤلاء الأبدال كلَّما ذهب رجلٌ أبدله الله بغيره، فهذا معنىٰ الأبدال وهو معنىٰ صحيح، وليس معنىٰ الأبدال كما هو عند الصوفية؛ أن الأبدال والأقطاب هم الذين تدور عليهم أمور الكون، وإليهم مفزع أهل الأرض؛ هذا كلُّه كلام باطل لم يأتِ ما يُصدِّقه من الكتاب والسنَّة والإجماع والقياس الصحيح(٢)، إنما معنىٰ الأبدال هو الذي تقدَّم ذكرنا له.

* * *

=

و٤٤٧) و(٨/ ١٥٣ و١٩٣ و٤٢٥) و(٩/ ٧٩ و٢٨٢ و٣٠٣ و٣٠٧ و٣٩٩)، و(١٠/ ١٦٦ و٢٦٢ و٣٤١ و٥٧٢ و٦٥٤)، و(١١/ ٩٤ و٢١٠ و٥٤٧).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب مَا يُذكَرُ فِي قَرنِ المِائَةِ، حديث رقم (٤٢٩١)، والحاكم (٤/ ٥٦٧-٥٦٨، رقم ٨٥٩٢ و٨٥٩٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣٢٣-٣٢٤، رقم ٦٥٢٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٥٩٩).

(٢) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١١/ ١٦٧، ٤٣٣-٤٤٤).

وَهُمُ الطَّائِفَةُ المَنصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ مَنصُورَةً، لَا يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم، وَلَا مَن خَذَلَهُم؛ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»(١).

نَسأَلُ اللهُ أَن يَجعَلَنَا مِنهُم، وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذ هَدَانَا، وَأَن يَهَبَ لَنَا مِن لَدُنهُ رَحمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ. وَاللهُ أَعلَمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا.

الشرح

أقول: الفصلُ الَّذي ذكره المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ في أثناء الرسالة أعني قوله: «فَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ بَينَ أهلِ التَّعطِيلِ الجهمِيَّةِ، وَأَهلِ التَّمثِيلِ المُشَبِّهَةِ؛ وَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ أَفعَالِ اللهِ بَينَ الجَبرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَينَ المُرجِئَةِ والوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغيرِهِم، وَفِي بَابِ أَسمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعتَزِلَةِ، وَبَينَ المُرجِئَةِ وَالجَهمِيَّةِ، وَفِي أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَالخَوَارِجِ».

من المناسب أن يُجعل هو الخاتمة بعد هذا الكلام؛ لأنه كالخلاصة في حقيقة أهل السنَّة والجماعة.

ثم ختم المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالة بقوله:

«نَسأَلُ اللهَ أَن يَجعَلَنَا مِنهُم، وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذ هَدَانَا، وَأَن يَهَبَ لَنَا مِن

---

(١) سبق تخريجه.

لَدُنهُ رَحمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ.

وَاللهُ أَعلَمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا».

تمَّت مراجعتُه مساء يوم الجمعة (٦/ جمادىٰ الأولىٰ/ ١٤٣٨هـ).

أسأل الله القبول في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

الفهرس

فهرس الموضوعات

مقدمة الشارح ٥
مدخل الشرح ٧
المقدِّمة الأولىٰ: العقيدة ودروسها ومسائلها وما يتعلَّق بها هي مِن الدِّين...... ٧
المقدِّمة الثانية: أنَّ مسائل العقيدة ليست محصورةً، إنما يَذكر العالِم مِن المسائل المتعلِّقة بهذا الباب ما يُخالف فيه أهلُ البدع أهل السنَّة ٨
المقدِّمة الثالثة: مسائل العقيدة ليس باللازم أن يكون كلُّ عوامِّ المسلمين يعرفونها، إنما ينبغي أن يعرفوا الأصل ١٠
المقدِّمة الرابعة: ليس عند أهل السنَّة والجماعة -حينما يتكلَّمون في العقيدة- شيءٌ اسمه وجوبُ النظر أو النظر الواجب ١١
المقدِّمة الخامسة: مسائل العقيدة ممَّا يتعلَّق بشهادة: (أن لا إله إلا الله، وأن محمَّدًا رسولُ الله)، يجب علىٰ المسلم أن ينتبه لها وأن يُراعيها ١٣
المقدِّمة السادسة: لو أردنا اليوم أن نكتب عن مسائل العقيدة لعلَّ أهمَّ المسائل التي نذكرها ما يتعلَّق بالشيعة، وما يتعلَّق بمسائل الخروج،

وبالمسائل الحادثة اليوم.. ١٤

المقدِّمة السابعة: التعريف بمتن الواسطية ١٤

تعريف موجز بشيخ الإسلام ابن تيمية مؤلِّف متن «الواسطية» ١٦

بداية الشرح ١٩

مقدمة المؤلف ١٩

لا يجب ذكر خطبة الحاجة في كلِّ مقام ١٩

شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَهَذَا اعتِقَادُ الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ المَنصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ)........................ ٢١

شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعثِ بَعدَ المَوتِ، وَالإِيمَانِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ) ٢٩

تفسير معنىٰ الإيمان بالله... ٣٠

إثبات الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنَّة لله جَلَّ من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل ٣١

التحريف اللفظيُّ.. ٣٢

التحريف المعنوي ٣٣

تعريف التعطيل ٣٣

تعريف التكييف ٣٤

تعريف التمثيل ٣٥

الجواب على سؤال: لِمَ نقتصر في أسماء الله وصفاته على ما ورد في الكتاب والسنَّة؟ ٣٦

مسألة: أسماء الله وصفاته توقيفية........................ ٣٦-٣٧

الأسماء والصفات تُثبت في النفي وفي الإثبات تبعًا لما جاء في كتاب الله ولما جاء في سنَّة رسول الله ﷺ........................ ٣٩

أسئلة الدرس:

سؤال (١): ما قولكم في الفتنة المؤخَّرة من طلبة العلم في هذه البلاد المباركة؟ ٤١

سؤال (٢): ما معنى: على فهم السَّلف الصالح؟ ٤٢

سؤال (٣): ما حكم قول: إن هناك فرقًا بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وما حكم قول: أنت جماعة ولو كنتَ وحدك؟ ٤٥

سؤال (٤): ما نوعُ التحريف فيمن قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بنصب لفظ الجلالة؟........................ ٤٦

سؤال (٥): قلتم -بارك الله فيكم-: إنَّ الله ﷻ يُخبَر عنه بأنه المُشرِّع، ولا يوصف

بذلك، وقد قال الله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الآية، ألا يؤخذ من هذا صفةُ التشريع له؟ ٤٧

سؤال (٦): قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. قال: هل هذا تحريف لفظيٌّ أم معنويٌّ؟ ٤٧

سؤال (٧): هلَّا بيَّنتم لنا الفرق بين التشبيه والتمثيل والتكييف؟ ٤٧

سؤال (٨): ما مدىٰ صحَّة قول: الله موجود في السماء؟ ٤٨

سؤال (٩): هل يختلف الصحابة في العقيدة، وهل يُستدلُّ بهذا الاختلاف علىٰ جواز وقوع الاختلاف في الأصول؟ ٤٩

سؤال (١٠): هل المنهج السلفي يوصف بالطائفة؟ ٥٠

شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَد دَخَلَ فِي هِذِهِ الجُملَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ فِي سُورَةِ الإِخلَاصِ الَّتِي تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾) ٦١

ما تضمَّنته هذه الآيات من الأسماء والصفات نؤمن به، سواء كانت صفاتٍ في الإثبات أو صفاتٍ في النفي، نؤمن بها ونؤمن بمعناها ونكِل كيفيتها إلىٰ الله تعالىٰ ٦٣

أهل السنَّة يُثبتون جميع الأسماء والصفات التي علَّمنا الله إيَّاها في كتابه، وعلَّمنا إيَّاها رسولُ الله ﷺ بلا تفريق بينها ٦٤
فصل: السُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيهِ، وتُعَبِّرُ عَنهُ............ ٦٦
لم يشترط الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السُّنَّة التي تُثبَت بها أسماءُ الله وصفاتُه أن تكون متواترة، بل يكفي ثبوت صحتها؛ خلافًا لمَن يقول: لا تثبُت العقيدة إلا بمتواتر .. ٧٢
حينما نقول: إنهم لا يشترطون إلَّا الصحة؛ فنعني بالصحَّة: القبول......... ٧٣
أنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يُبيِّن أن أسماء الله وصفاته لا يَلزم أن يُنصِّص عليها العلماء، فكلُّ ما دلَّ عليه الحديث الثابت من صفة أو اسم؛ فنحن نُثبته ... ٧٤
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبَيِّنُهُ ...).................. ٧٥
شرح حديث النزول.. ٧٨
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَهُم وَسَطٌ...)................................ ٨١
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ أَفعَالِ اللهِ بَينَ الجَبرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِم)... ٨٤
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَينَ المُرجِئَةِ والوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِم)... ٨٦
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي بَابِ أَسمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ

وَالمُعتزِلَةِ، وَبَينَ المُرجِئَةِ وَالجَهمِيَّةِ) ٨٩

شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَالخَوارِجِ) ٩٠

فَصلٌ: الإِيمَانُ بِمَا أَخبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَن رَسُولِهِ، وَأَجمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِن أَنَّهُ سُبحَانَهُ فَوقَ سَمَوَاتِهِ، عَلَىٰ عَرشِهِ ٩٢

فَصلٌ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ قَرِيبٌ مُجِيبٌ ٩٨

الرد علىٰ شبهة: كيف يكون الله عليًّا مستويًا فوق عرشه فوق سمواته وهو قريب منَّا إذا دعوناه، فإن الله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ؟! ٩٨

القُرآنَ كَلَامُ اللهِ، مُنزَّلٌ، غَيرُ مَخلُوقٍ، مِنهُ بَدَأَ، وَإِلَيهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً ١٠١

المؤمنون يرون ربهم يوم القيامة عِيانًا بأبصارهم........................ ١١٠

فَصلٌ: الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعدَ المَوتِ ١١١

شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَتَقُومُ القِيَامَةُ الَّتِي أَخبَرَ اللهُ بِهَا) ١١٤

شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَيَقُومُ النَّاسُ مِن قُبُورِهِم لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرلًا، وَتَدنُو مِنهُمُ الشَّمسُ، وَيُلجِمُهُمُ العَرَقُ)........................ ١١٥

كتابُ ابن آدم فيه ثلاثة دواوين..١١٨
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِقَ)..........................١١٩
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَمَّا الكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَن تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ)..١٢٠
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَرَصَات القِيَامَة)..........................١٢١
الصراط..١٢٣
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَوَّلُ مَن يَستَفتِحُ بَابَ الجَنَّةِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ)..........................١٢٦
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَصنَافُ مَا تَضَمَّنَتهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذكُورَةٌ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ)..١٣٢
شرح قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ أَهلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ)..١٣٤
فصل: وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ.....١٥٠
فصل: وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِم وَأَلسِنَتِهِم لأَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ..١٥٩

شرح قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ) ١٦٦

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ ١٧٤

فصل: مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ١٨٢

المنهج السلفي يقوم على أربعةُ أصول ١٨٢

فصل: أهل السنَّة والجماعة يرون أنَّ الجهاد والجمعة ماضيان مع كلِّ إمام برًّا كان أو فاجرًا ١٩٠

من أهمِّ صفات المسلم الحقِّ: حرصه على الجماعة، ونبذُه لأيِّ سببٍ يُؤدِّي إلى الفُرقة والاختلاف ١٩٤

أعلى الأخلاق التي ينبغي أن يتخلَّق بها المسلم هي الصبر ١٩٧

شرح قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ) ٢٠٠

شرح قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) ٢٠١

الخاتمة ٢٠٥

الفهرس ٢٠٧